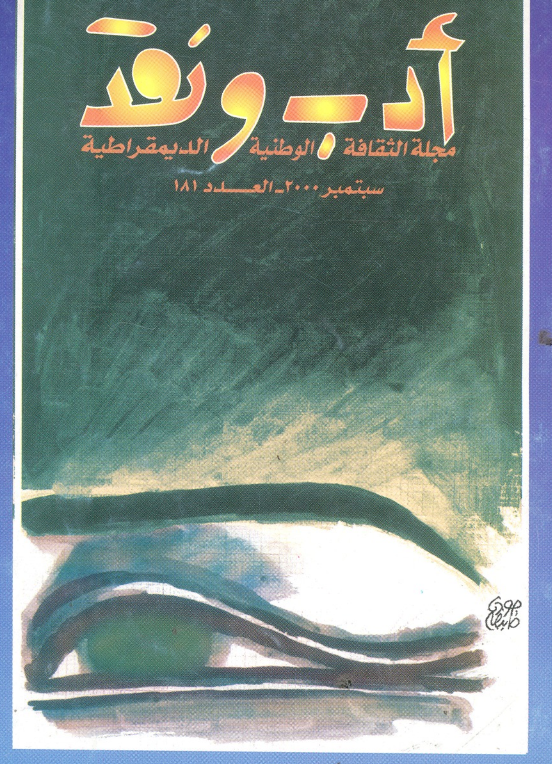


- الحسبة: هل لها أصل فى تشريع القرآن الكريم
- الحسبة: بين الدولة المدنية والدولة الدينية
- طالبان: الدين.. الوطن.. المخدرات
- چان چينيه: كنتُ طوال حياتى «ضد»
- الشيخ إمام: جاتكو فضيحة ياطبقة سطحية



أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي
العدد ١٨١ - سبتمبر ٢٠٠٠





لوحة الغلاف والرسوم الداخلية للفنان الكبير: جودة خليفة

التنفيذ الفنى للغلاف : أحمد السجينى

(طبع شركة الأمل للطباعة والنشر) .

أعمال الصف والتوضيب الفنى : نسرين سعيد إبراهيم

المراسلات : مجلة أدب ونقد ١ شارع كريم الدولة/ ميدان طلعت حرب . الأهالى القاهرة - ت : ٢٩ / ٢٨ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس : ٥٧٨٤٨٦٧

الاشتراكات لمدة عام : داخل مصر ٤٠ جنيها / البلاد العربية ٣٠ دولاراً - أوروبا وأمريكا - ٦٠ دولاراً باسم الأهالى - مجلة أدب ونقد . الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

الفهرس

- أول الكتابة/ المحررة/ ٥

• الحسبة: هل لها أصل فى تشريع القرآن/ د. أحمد صبحى منصور/ ١١

- الديوان الصغير :

الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية/ مركز المساعدة القانونية/ ٣٣

• صلاح محسن: الاعتراف سيد الأدلة/ حلمى سالم/ ٤٧

• نقد العقل الإسلامى: متى وكيف؟/ أيمن عبد الرسول/ ٥٤

• طالبان: الدين، الوطن، المخدرات/ عرض: أسامة الرحيمى/ ٦٩

• جان جنينيه فى حديث غير معروف/ كنت طيلة حياتى ضد/ ٧٧

- الذكرى الخامسة لمغنى الشعب: الشيخ إمام/ أشرف الصباغ/ ٨٩

• جر شكل: لابد أننى شيوعية/ غادة نبيل/ ٩٧

• جر شكل: سر الخسة/ ماجد يوسف/ ١٠٣

• رسالة المغرب: الرباط والمهرجان والشيخ إمام/ نورا أمين/ ١٠٨

• فن تشكيلى: الفن والآلهة الألكترونية/ أشرف إبراهيم/ ١١٣

• متابعات نقدية: مصطفى عطية جمعة/ محمد عبد الحميد الدغيدى/ شريف صالح/ ١١٩

• أصوات جديدة: ضراوة المبتسم/ نصوص: وليد طلعت/ إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزونى، محمد داود، محمد طلبة، عمرو النوسانى/ تقديم: مزيد أبو سعدة/ ١٣٢

- شعر: بيجرب المشى على رجل واحدة/ مسعود شومان/ ١٥١

- شعر: الطريق/ جمال راغب الدربالى/ ١٥٦





نواصل فى هذا العدد ما كنا قد بدأناه فى أعدادنا الثلاثة الأخيرة عن حرية الفكر والتعبير والاعتقاد والقيود التى يسعى البعض لتكبيلها بها باسم الدين ،والحسبة من الزوايا الدينية والقانونية هى موضوع هذا العدد الرئيسى لأنها أصبحت سلاحا أخذ يشهره الظلاميون ودعاة الانغلاق فى الماضى وأصحاب الجمود الفكرى والدينى فى وجه الاستنارة والتفتح وحرية التعبير حتى أصبح العرب عرضة لعملية إفقار واسعة النطاق لإبداعهم الأدبى والفنى إضافة إلى تدنى اسهامهم فى الإبداع العلمى والتقنى العالمى رغم كل المظاهر الخارجية سواء كان من هذه المظاهر وسائل النقل العملاقة التى نستخدمها أو الاقمار الصناعية التى يصنعها لنا الآخرون ونكتفى بإلصاق أسمائنا عليها وتسخيرها لنقل المواد الدعائية الفجة التى تجعل العالم يهزأ بنا، ونطلق على هذه المهزلة اسم السيادة الاعلامية.

وننشر دراسة للدكتور «أحمد صبحى منصور» وهو أزهرى فصلته المؤسسة بسبب جرأته العلمية يرد فيها على هذا السؤال : الحسبة : هل لها أصل فى تشريع القرآن ؟.

ومثلما فعل الباحث والمفكر الإسلامى جمال البنا الذى نشرنا له قبل عددين دراسة عن حد الردة معتمدا على القرآن الكريم ومبينا أنه لا وجود إطلاقا لمثل هذا الحد فى القرآن والسنة ، يستند «منصور» أيضا إلى القرآن أساسا فى الرد على سؤاله .. أى على الكتاب الذى هو أصل الإسلام المحفوظ حتى قيام الساعة

تتجمع أحكام الفقهاء عن الحسبة فى قضايا أساسية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن خلالها يتدخل المحتسب الرسمى أو المتطوع فى حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادية والتعبدية، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفريق بين المرء وزوجته ،

ويتطرف بعضهم فلا يعطى المسلم المتهم بالزندقة أو الخلاف فى الرأى حق المحاكمة بل يقتل حتى وإن أعلن توبته »..

وكأنه يصف ما يحدث فعلا الآن فى عدد يتزايد من البلدان الإسلامية حيث تجرى ملاحقة المفكرين والكتاب والمبدعين وقتلهم كما حدث فى مصر والجزائر ،وفى اليمن ولبنان ،فى بنجلاديش وإيران. حيث جعلوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة التى تعود إلى تشريعات العصر العباسى فى القرون الوسطى ولم تعرفها دولة النبى أو الخلفاء الراشدين ، حيث كانت القاعدة العامة وما تزال فى القرآن هى« الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يكون الجدال بالتى هى أحسن » وهو ما دعا إليه فى كل الأحوال مثقفو التنوير والديمقراطيون بعامة وما دعا إليه الفكر النقدى دائما..

ويؤكد الباحث أنه طبقا للقرآن لا يصح للمؤمن أن يتهم أحدا بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين ، ولا يجوز للأنبياء أنفسهم الحكم على الناس واتهامهم بمن فى ذلك المشركون فذلك لله وحده فهو الإله الغفور الرحيم الذى ساوى بين البشر جميعا وقال عنه «غاندى» ،كما تسوق النص زميلتنا الشاعرة« غادة نبيل» التى لابد أن نحقق !!! إذا كانت حقا شيوعية.

« الله هو الديمقراطى الأعظم لأنه أعطانا حرية أن نؤمن به أو لا نؤمن »

كذلك فإنه لا يجوز لبشر استتابة إنسان أو إتهامه بالردة فذلك شأنه مع الله وحده ، وليس لبشر- حتى النبى- أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبده فى موضوع التوبة.

ولعل أخطر ما يسوقه لنا هذا البحث فى معرض الحديث عن التفريق بين الزوج وزوجه وهو غير الجائز إسلاميا حتى لو كان أحد الزوجين مشركا، وسوف أسوق النص كاملا لأهميته البالغة:

«تذكر كتب السيرة أن ابنين لأبى لهب كانا على وشك الزواج ببنتين للنبى ، ثم تركاهما بتأثير أبى لهب وأم جميل ، وتذكر السيرة أيضا أن زينب بنت النبى تزوجت من مشرك بلغ من إخلاصه لعقيدته أنه اشترك مع المشركين فى موقعة بدر، ثم أسره المسلمون ، وبعثت زوجته بنت النبى

بعقد لتفتدى به زوجها من أبيها إلى المدينة ، أى أنها بقيت مع زوجها فى مكة ، ولم تتركه لتهاجر مع أبيها إلى المدينة مع إسلامها ، ثم تركت زوجها فيما بعد وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمنا والمستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد وأنه ليس فى تشريع الإسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختارا ذلك وافترقا عن بعضهما بمحض إرادتهما ».

ورغم هذه الوقائع الدامغة ، بل ورغم أن الباحث فى علوم القرآن نصر حامد أبو زيد أكد أكثر من مرة أنه مسلم مؤمن بكتاب الله ورسوله فباسم ارتداده أو شركة صدر حكم التفريق بينه وبين زوجته « ابتهال يونس » بدعوى أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج مشركا ، ويقاضى « نصر » وزير العدل فى ذلك وما تزال القضية منظورة أمام المحاكم.

وفى الديوان الصغير نص الدراسة التى كان مركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان قد أجراها حول الحسبة من الزاوية القانونية وفى ارتباطها بحقوق الإنسان وهى عن « الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية، »فدعوى الحسبة تعكس فى حقيقتها رؤية طائفية تنهض على التمييز بين المواطنين على أسس دينية، كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزا على أساس من الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أم غير مسلمة.

والحسبة سلاح ضد حرية المواطنين فقد قام الحكام المماليك « بمنع المصريين من كثرة الكلام لما اشتهروا به من السخرية بالمليك وسلاطينهم »

. وفى نظام الحسبة نجد أن « فكرة النظام العام العلمانية تتحول إلى فكرة حقوق الله ،وهى فكرة دينية عقائدية ،فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية ، والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين ، وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الدينى لفكرة حقوق الله ، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة ».

ولا تصلح المادة الثانية من الدستور التى تنص على أن الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع لتكون سنداً بذاتها لدعاوى الحسبة

لأن المحكمة الدستورية العليا أصدرت حكما تاريخيا يقول إن نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن فى حقيقته خطابا موجها إلى المشرع لا إلى الكافة.

ولكن الحكومة المصرية بدلا من أن تستند إلى هذا الحكم القوى لإلغاء دعوى الحسبة تماما أحالت الحق فى تحريكها إلى النيابة العامة ليبقى سلاح الحسبة عنصر تهديد دائماً للكتاب والمفكرين كما حدث فى قضية الكاتب صلاح الدين محسن الذى يقدم لنا الزميل حلمى سالم تقريرا عنها فى هذا العدد وذلك بعد صدور حكم بحبسه لمدة ستة أشهر مع وقف التنفيذ بدعوى الإلحاد.

ويقدم لنا «أيمن عبد الرسول» الذى تفخر أدب ونقد بأنها قدمته للحياة الفكرية باحثا واعدا قراءة فى عمل مفكر جزائرى الأصل مقيم فى فرنسا ويكتب بالفرنسية وقد تخصص فى الإسلاميات وهو «محمد أركون» الذى ننوى أن نقدم كتبه تباعا لأهميتها البالغة ليتعرف قارئ «أدب ونقد» على عالمه وآليات تفكيره النقدى العلمى فى نقد كل من الخطاب الإسلامى السائد والاستشراقى المتعالى سعيا إلى تأسيس ما أسماه بالقراءة التزامنية للقرآن تنظر إليه فى كليته وهى تستعيد لحظات تلقى الوحى الأصلية وسياقاتها ، مع ضرورة أن يتسلح الباحث بمعرفة شاملة وعلمية بالتراث وبطرق الاجتهاد الكلاسيكية قبل أن يحدث قطيعة معها ، خاصة أن ممارسات التفسير الإسلامى التقليدى مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقى والضعف.

ويستطيع« محمد أركون » أن يقدم اجتهاده العلمى والفلسفى فى مناخ آمن فى باريس مناخ يحمى الفكر والاعتقاد والاختلاف ، ويحتفى بالبحث الخلاق دون إكراه أو تكفير أو تعسف ، إنه المناخ المواتى لإبداع العلم وابتكارات العلماء ، المناخ الذى يحث حثا على إعمال الخيال بلا حدود فيكتب الأدباء ويبدع الفنانون وهو فارق جوهرى بين حالتين حالة العمل تحت التهديد والضغوط فى البلدان الاسلامية والعربية التى يتعرض فيها الفكر للقمع والوأد ، وحالة العمل فى بلد متقدم لا يكون على العلماء والباحثين

والمفكرين فيه أن يخوضوا مرتين وثلاثاً نفس المعارك كما يحدث في بلادنا ،ليس ذلك فحسب وإنما يدفعون أيضا ثمن شجاعتهم الفكرية غاليا إما قتلا أو مطاردة أو إسكاتا للصوت وتعطيلا للطاقات الفكرية إلى إجترار ما سبق انتاجه تطلعا للسلامة، وإشاعة الجبن الفكرى والفقر المعرفى لتظل حياتنا الفكرية والثقافية تفتات على فتات ما ينتجه الآخرون وتتحلل تحت وطأة الركود والحصار.

إن سيناريو متخيلاً يتصور أن« محمد أركون » قد واصل العيش فى الجزائر وبدأ مسيرته العلمية هناك وبقى بها حتى الآن سوف يقودنا حتما لى نتيجة مأساوية، فإن مصيره فى هذه الحالة لم يكن لتصبح بأفضل من مصير المائتى مثقف الذين اغتالهم رصاص الارهابيين وسكاكين الظلاميين ، فإذا كان الذين قتلوا مائتين فإن آلافا مؤلفة من المثقفين قد انطووا على أنفسهم أو صمتوا ولم تكتمل مشاريعهم العلمية كما كانوا يحلمون لقد تحولت بلادنا إلى مقابر للأحلام فليرع الله « محمد أركون » حيث هو ليحلم وينتج ويضيئ الزوايا المظلمة فى العقل الإسلامى بجسارة من لا يعيش تحت التهديد.

هل أكتب بيأس ؟ وهل يتضمن كلامى دعوة مبطنة لهجرة البلاد من أجل الحرية فى مكان آخر.

كلا .. وألف كلا.

بل إننى أدعو المؤسسات العلمية والأدبية الصاعدة حتى وإن كانت صغيرة أن تواصل عملها بكل اجتهاد وإتقان لرعاية الباحثين الجدد ودعم شجاعتهم الروحية والفكرية ومساعدتهم على الاستمرار والتحمل تصوروا. إن « أيمن عبد الرسول » الذى نعول عليه كثيرا هو مضطر لكى يعيش أن يعمل ضابط أمن يقضى الليل ساهرا فى إحدى المؤسسات الخاصة فى الاسكندرية لحراستها ، ولنا أن نتصور وضع آلاف من الباحثين الشبان الذين يطمحون إلى تقديم مشاريعهم العلمية ولكنهم يعجزون لأنهم وقعوا بين الطاعون والكوليرا على حد تعبير الكاتب الجزائرى الراحل « كاتب يسن » وهو يتحدث عن عنف العسكريين وفسادهم من جهة وعنف الجماعة

الإسلامية بوحشيتها من جهة أخرى ونضيف إليها ضعف الموارد المخصصة للبحث العلمي.

سوف نعود مرة أخرى لمناقشة هذا الموضوع الكبير ولنبحث حول إمكانيات المؤسسات الكثيرة في بلادنا ومدى قدرتها على تقديم الحماية والإحساس بالأمان للباحثين والمثقفين عامة وهو ما سوف يدفعنا دفعا إلى مسألة الديمقراطية والحريات العامة.

أما مفاجأة هذا العدد فهي حديث غير معروف للكاتب الفرنسي الاشكالي العظيم «جان جينيه» ،حديث يستعصي على التصنيف مثلما هو قائله ذاته إذ يطرح بجرأة وروح عالية أفكاره وتصوراته التي أثارت وما تزال عواصف لا تهدأ عن الكتابة .. الاستعمار الاستغلال ..معنى الوطن .. القتل .. العزلة .. إلخ.

ما دامت فرنسا - «وطنه» لا تهتم بتلك السياسة التي يسمونها شمال/ جنوب ، ولاتولي مزيدا من الاهتمام بالعمال المهاجرين أو المستعمرات القديمة ،فإن السياسة الفرنسية لا تهمني في شئ.

ولعله كان من حسن حظنا وحسن حظ المفكر الجزائري «محمد أركون» أنه هاجر إلى فرنسا طالبا وليس عامل نظافة أو حمالا أو سائقا فما زال المجتمع الطبقي على الصعيد العالمي يفسح- ولو مكانا ضئيلا- لأبناء الطبقة الوسطى بينما ينفي الجماهير العاملة في الاستغلال الكثيف.

وإن كان جينيه يقول:

«الفرنسيون ليسوا فقراء .. الفقير الحقيقي في فرنسا هو العامل المهاجر ، الفرنسيون ليسوا فقراء ، إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت امبراطورية استعمارية»

إنتقدنا بعض أصدقاء «أدب ونقد» أو الغاضبين عليها لأننا أحيانا ما نعيد نشر مادة نقلا عن مطبوعات أخرى ، وتوقفنا طويلا أمام هذا النقد ، لكن إغراء كلمات «جينيه» كان أقوى منه.

المحررة

دراسة

الحسبة: هل لها أصل في تشريع القرآن؟

د. أحمد صبحي منصور

مقدمة

القرآن الكريم هو أصل الاسلام المحفوظ إلى قيام الساعة، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . وخاتم لنبيي كانت وظيفته محصورة فى تبليغ هذه الرسالة الآلهية «المائدة ٩٢ ،٩٩» النحل ٣٥ ، ٨٢ »وكان ممنوعا من إخفائها أو تبديلها «الاسراء ٧٣ ، الشورى ٢٤ ، يونس ١٥، ١٦ » كما كان ممنوعا من أن يزيد حرفا فى هذا الوحى الالهى «الحاقة ٤٤-٤٧» وخاتم النبيين كان مأمورا باتباع هذه الرسالة الآلهية القرآنية «الانعام ، الاعراف ٣ يونس ١٥، الاحقاف ٩» .وهذا الاتباع للقرآن هو سنته الحقيقية أى التطبيق العملى لكتاب الله تعالى . ومن يحب النبى ويؤمن به ويواليه هو الذى يؤمن بأن النبى عليه السلام قد قام بتبليغ القرآن كما نزل عليه ، وانه عليه السلام لم يخالف القرآن فى أقواله ، وانه عليه السلام طبق أوامر القرآن كما هى.

وأصحاب الاهواء هم الذين ينسبون للنبى أقوالا تخالف القرآن .وهم الذين ينسبن له تشريعات ما انزل الله بها من سلطان ، وتلك التشريعات والاحكام هى منبع التطرف والتشدد والظلم والارهاب.

بعضهم كان يفعل ذلك بحسن نية مخدوعا بصدق تلك الأقوال ، وبعضهم

كان يفعل ذلك عن جهل أو قصد ، ولكن المهم أن واجب من يحب الاسلام أن يبرئ دين الله تعالى ورسوله الكريم من كل من يخالف الكتاب الحكيم.

هذه مقدمة ضرورية لموضوع الحسبة وتشريعاتها وصلتها بالقرآن الحكيم. ان احكام الفقهاء عن الحسبة تتجمع -تقريبا- فى قضايا اساسية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن خلالهما يتدخل المحتسب الرسمى أو المتطوع فى حياة الآخرين وعقائدهم وسلوكياتهم العادية والتعبدية ، وقد يصل هذا التدخل إلى العقوبة ، وقد تصل هذه العقوبة إلى القتل والتفريق بين المرء وزوجه، ويتطرف بعضهم فلا يعطى المسلم المتهم بالزندقة -أو الخلاف فى الرأى -حق المحاكمة بل يقتل حتى وان أعلن توبته.

هذه الاحكام الفقهية -التى طبق المسلمون بعضها فى العصر العباسى والمملوكى- هل كان يعرفها عصر النبى عليه السلام؟ .وهل كانت من تشريعات القرآن وسنة النبى وتطبيقه عليه السلام . نرجع إلى الكتاب العزيز نحتكم إليه..

- لقد تعامل النبى عليه السلام مع مشركين محاربين ومنافقين متآمرين وطوائف من اليهود والنصارى بالاضافة إلى المؤمنين من أصحابه ، ومن بينهم ضعاف الايمان واقوياء الايمان، والثابت من القرآن الكريم بل ومن التراث المكتوب فى العصر العباسى أنه عليه السلام لم يعقد محاكمة للتفتيش على عقائدأى شخص مؤمن أو منافق طيلة السنوات التى قضاها حاكما للمدينة، ولم يقم باصدار حكم بالتفريق بين رجل وزوجه بتهمة الردة والكفر. هذا مع طول ما عاناه النبى من تآمر المنافقين ومكائدهم القولية والفعلية والتى نزل القرآن يخبر عنها . إذن فان قضية الحسبة واحكامها لم تعرفها دولة النبى فى المدينة بل لم تعرفها دولة الخلفاء الراشدين.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

لقد جعلوا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غطاء تشريعيا للحسبة ،

ولكن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى تشريعات القرآن له ملامح مختلفة عن تشريعات الحسبة الفقهية ،فالأمر بالمعروف أمر قولى والنهى عن المنكر نهى قولى ، أى نصح وإرشاد باللسان فاذا أصر الشخص على رأيه فهذا شأنه طالما لا يمتد ضرره إلى الغير وحقوق الناس فى الدولة والأموال الأغراض ، والله تعالى يقول «يأيها الذين أمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا ، فينبئكم بما كنتم تعملون : المائدة ١٠٥ » أى بعد النصيحة يكون الاعراض عمن يختار الضلالة انتظارا إلى حكم الله تعالى يوم القيامة.

والنبى نفسه أمره الله تعالى أن يتبرأ من عصيان اصحابه ، إذا وقعوا فى عصيان النبى، ، وعصيان النبى يوصف بانه جريمة ،والمنتظر ممن يقع فى عصيان النبى أن يكون متهما بالكفر ، وان تعقد له محاكم تفتيش ، وان تحكم المحاكم بردته والتفريق بينه وبين زوجه ،حسب تشريع الفقهاء ولكن تشريع الاسلام فى القرآن يقول للنبى عن اتباعه المؤمنين « **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » أى كن هينا لينا متواضعا مع من اتبعك من المؤمنين ، فماذا يحدث إذا عصاه بعض المؤمنين ؟ تقول الآية التالية «فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون : الشعراء ٢١٦ » لم يقل** ه ربه فإن عصوك فاضربهم بالسلاسل والجنازير، أو اتهمهم بالكفر، أو فقل **لهم إنى برئ منكم** ، ولكن فقل« إنى برئ مما تعملون « أي برئ من أعمالهم السيئة ، وليس من أشخاصهم ، وهذه هى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،أمر ونهى باللسان فقط ، وبعده تكون البراءة من العمل السيئ وليس من الشخص المؤمن.

والملمح الثانى فى تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه ليس وظيفة لطائفة معينة تحترف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر رسميا أو تطوعيا ، ولكن المجتمع كله يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر، وذلك ما جاء

فى سورة العصر التى تلخص ملامح المجتمع المسلم، ولذلك يقول تعالى يهيب بالأمة الاسلامية أن تكون كلها أمة تأمر فيما بينها بالمعروف وتتناهى عن المنكر «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون: آل عمران ١٠٤» ،فالخطاب للأمة جميعا فى هذه الآية وما قبلها وما بعدها ، لان بنى اسرائيل كانوا- فى بعض عصورهم -أمة لا تتناهى عن المنكر ، فاستحقوا اللعن على لسان داود وعيسى عليهما السلام «المائدة ٧٨ ، ٧٩» . وإذا كان بنو آدم -كلهم خطاءين- وخير الخطائين التوابون، فليس منتظرا أن يحترف بعضهم النصيحة للباقين ويستنكف أن ينصحه أحد وإلا فقد كان ممن ينطبق عليه قوله تعالى« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون: البقرة ٤٤» . وَإذن فإن تشريع «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» فى القرآن يخالف تشريع الحسبة إذ أن حدود التدخل فى حياة الآخرين لا تتعدى النصح الجميل ، أما فى تشريع الفقهاء فالتدخل يصل إلى درجة العقوبة بالقتل فى الاتهام العقيدى أو الفكرى

فى الجدال الفكرى

وفى عصر النبى كان حوله أصحاب فكر مخالف وعقائد مخالفة من المشركين والنصارى واليهود وكانوا يذهبون للنبى ليجادلوه ، وتلك قضايا فكرية يعتقد كل فريق انه على الحق وان خصومه على الباطل ، فهل كان النبى مسموحا له بأن يتهم أولئك الخصوم بالكفر؟ وماهو المنطق الذى نزل به تشريع القرآن للنبى -ولنا نحن بطبيعة الحال؟ .هناك من يجادل طلبا للعلم ومنهم من يجادل عنادا وبهتانا . والقاعدة العامة أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يكون الجدال بالتى هى أحسن «النحل ١٢٥» ، ولكن الذى لا يؤمن بآيات الله لا فائدة من الجدال معه، لذلك يأمر الله تعالى النبى الكريم بالاعراض عنهم إذا جاءوه يجادلونه «وإن جادلوك فقل

الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون: الحج ٦٨ ، ٦٩ ».

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير« الحج ٣ . ٨ لقمان ٢٠ » وأوضح أن هدفهم هو الجدال بالباطل لمجرد الهجوم على الحق « الكهف ٥٦ » وان ذلك هدف شيطانى فى حد ذاته لذلك أمر الله تعالى المؤمنين بعدم الجدال معهم حتى لا يكونوا مثلهم ، يقول تعالى « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون: الانعام ١٢١ »، إذن فالجدال بالتى هى أحسن مع من يجادل بالتى هى أحسن ، أما من يظلم الله تعالى ويكذب بآياته فلابد من الاعراض عنه ، وارجاء الحكم إلى الله تعالى يوم القيامة . وهذا هو تشريع القرآن فى الجدال مع أصحاب الفكر المخالف أو الفكر المعاند ، وليس فيه على الاطلاق اتهام بالكفر أو اقامة محاكم تفتيش.

الجدال مع أهل الكتاب

وبعض أصحاب الفكر الدينى المخالف كانوا من أهل الكتاب وقد شرع الله تعالى الا يكون الجدال معهم الا بالحسنى ما عدا االظالمين منهم فينبغى الاعراض عنهم بعد أن يقال لهم ان الاله الذى نعبده ويعبدونه اله واحد ونحن له مسلمون ، يقول تعالى« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى انزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا والاهكم واحد ونحن مسلمون : العنكبوت ٤٦ » أى الاعراض عنهم مع الاحسان فى القول والخطاب فى القرآن الكريم قد يشمل خطاب الله تعالى للبشر فيما يخص ذاته العلية وما يدعى البشر نشأتها وغير ذلك ، ويشمل أيضا التشريع للمؤمنين بما ينبغى أن يكون عليه خطابهم وتعاملهم مع المخالفين فى العقيدة ..فالله تعالى من حقه أن يقرر أنه لا اله الا هو وانه لا يشرك فى حكمه أحداً أنه لم يلد ولم يولد وليس له من المخلوقات من يشبهه

أو يكون كفواً له، جل وعلا.. ومن حقه تعالى أن يردِ على من يعتقد بان له شريكا أو زوجة ولداً ، ومن حقه تعالى أن يصفهم بالكفر والشرك والضلال ، وهذا حقه فى قضية تمس ذاته العلية المقدسة جل وعلا . ولذلك انزل كتابه القرآن العظيم فى تقرير الحق كى يكون حجة على الخلق .. ولكنه تعالى فى نفس الوقت شرع للمؤمنين به ان يجادلوا بالتى هى أحسن مع خصومهم فى العقيدة وان يعرضوا عن الظالمين منهم، وان يرجئوا الحكم إلى الله تعالى وينتظروا الحكم يوم القيامة.

وعلى سبيل المثال أوضح رب العزة جل وعلا القول الحق فى عيسى عليه السلام وانه بشر مثل ادم، خلقه الله تعالى من تراب ثم قال كن فكان ، وبعد آيات عديدة تحدثت عن ميلاد عيسى وبشريته ودعوته ووفاته، نزل تشريع القرآن الحكيم للنبى عليه السلام فيمن يأتى للنبى يجادله فى طبيعة المسيح بما يخالف الحق القرآنى ، يقول تعالى «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين: ال عمران ٦١» بعد توضيح الحق فى قضية المسيح لم يقل تعالى للنبى- فى هذه الايات المدنية . انهم إذا جاءوك يجادلونك فى المسيح فقل لهم أنتم كفرة ، وانما دعاهم إلى المناهلة بأن يأتى الفريقان الابناء والنساء ثم يبتهل كل فريق إلى الله تعالى بأن تكون لعنة الله على الكاذب من الفريقين ..وهذه أقصى درجة من إرجاء الحكم إلى الله بأن يعلن الفريق الكاذب ، دون أن يصف نفسه بانه على الحق ودون أن يصف الآخرين بانهم الضالون ..هذا هو تشريع القرآن لنبى الاسلام عليه السلام.

لم يقل لهاقرأ عليهم الايات التى تصف بالكفر من يقول بان الله هو ثالث ثلاثة، أو بان الله هو المسيح ابن مريم ، لأن هذه الايات كلام الله وحكمه ، وهذا هو خطابه مع عبيده والذى لا يشارك فيه أحداً ، أما خاتم



النبيين نفسه فهو مأمور بإرجاء الحكم إلى الله تعالى حتى فيمن يجادله فى طبيعة المسيح بما يخالف القرآن ، وبالتالى فإنه لا يجوز لمؤمن أن يبيح لنفسه خصوصية فى اتهام الاخرين وتكفيرهم ، لأن النبى عليه السلام نفسه لم يعط هذه الخصوصية . كل ذلك فى نطاق التعامل مع الفكر المعاند للاسلام.. فماذا مع المشركين المحاربين بالسلام حيث تحددت مواقفهم وهم يبذلون النفس والنفيس فى سبيل عقيدتهم التى تخالف الاسلام؟ هل يجوز للنبى أن يحكم بكفرهم وكل الدلائل على كفرهم واضحة جلية؟.

مع المحاربين

إن تشريع القتال فى الإسلام يكون فقط لرد الاعتداء بمثله وفى الدفاع المشروع ،وفى إحدى الغزوات الدفاعية انهزم المسلمون ، وكانت غزوة أحد التى آصيب فيها النبى بجروح مختلفة حتى أشيع أنه مات قتيلا ، وغضب النبى لما حدث فقال: « لا يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا » ،وفى موقف كهذا من المسموح لأى شخص أن يقول مثل ذلك وأكثر ، ولكن ذلك ليس مسموحا فى شريعة الله للنبى وللمؤمنين ،لان الحكم بالفلاح والخسران مرجعه لله تعالى وحده ، لأن الفلاح للمؤمنين والخسران للكافرين ، ولا يصح للمؤمن أن يتهم أحداً بالكفر حتى لو حمل السلاح ضد المسلمين ، وهكذا انزل قوله تعالى للنبى « ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون، ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم : ال عمران ١٢٨ ، ١٢٩ »، فالنبى ليس له من الأمر شئ لأن الأمر كله لله تعالى ، وإليه تعالى يرجع الأمر كله. وهو الذى يتوب عليهم إذا شاء أو يعذبهم إذا أراد على ظلمهم ،والنبى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم ماذا سيحدث فى المستقبل ،لأن علم ذلك عند علام الغيوب جل وعلا، وقد مرت الايام واسلم خالد بن الوليد بطل المشركين فى غزوة أحد، وسماه النبى نفسه سيف الله المسلول . ومرت الايام واسلم ابو سفيان زعيم المشركين فى غزوة أحد ،

وأبلى بلاء حسنا فى موقعة اليرموك .. أى من تراه اليوم معاندا وتحكم عليه بالكفر ، ماذا يدريك ما سيحدث له فى الغد؟ ربما سيكون أفضل منك عند الله تعالى. ثم أن الأنبياء وهم صفوة الخلق ليس عليهم إلا البلاغ فقط وليس لهم الحكم على الناس أو اتهامهم، فذلك لله وحده وكل ما هناك؛ أن الله تعالى أمر النبى الكريم بأن يقول لخصومه ، «أعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا إنا منتظرون» ، ثم يقول له ربه جل وعلا» ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله : هود ١٢١».

مع المنافقين

وقد يقول بعضهم أن النبى حين كان حاكما على المدينة لم يكن له سلطان على اعدائه المشركين وأهل الكتاب .. فربما يكون من حقه كحاكم ونبى أن يحاكم خصومه المنافقين .. ولكن تشريعات القرآن واحدة لا استثناء فيها ، وربما سمو التشريع القرآنى يتجلى أكثر فى التعامل مع المنافقين الخاضعين للدولة الإسلامية . كان المنافقون نوعين ، نوعا أدمن النفاق وكتم مشاعره بحيث لم تظهر من أقواله أو من أفعاله ما ينبئ عن حقيقة كراهيته للاسلام ،وهذا الصنف توعده الله بالعذاب فى الدنيا والآخرة، ولم يكن للنبى علم بهم، يقول تعالى« وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم: التوبة١٠١».

النوع الآخر من المنافقين أظهر كراهية للاسلام فى أقوال وأفعال وحركات عدائية وتآمر وكيد للنبى والمسلمين، وكان تآمرهم يبلغ درجة الخيانة العظمى حين كانوا يتحالفون مع اعداء الدولة أو يتآمرون معهم ضد المسلمين وقت الحرب. وكان ذلك فى نطاق المسموح طالما كانوا تحت سطوة الدولة ولم يرفعوا ضدها السلاح ولم تخرج حركاتهم عن مجرد زوابع وتحرشات قولية .. أما إن كانوا خارج حدود الدولة مثل الاعراب المنافقين

أو همـوا بحمل السلاح ضدها هنالك فقط تكون المواجهة الحربية معهم حسبما جاء فى القرآن «النساء ٨٨ الأحزاب ٦٠» أى أنه كانت للمنافقين كافراد وجماعات حرية المعارضة للدين والدولة كيفما شاءوا .. وكان القرآن ينزل بحكم يكفرهم ويفضح تآمرهم ، ولكن يأمر النبى والمؤمنين بالإعراض عنهم اكتفاء بما ينتظرهم من مصير بائس يوم القيامة اذا لم يتوبوا.

والإعراض عن أقاويل المشركين والمنافقين هو التشريع القرآنى فى التعامل معهم ،وهو تشريع يناقض تماما محاكمتهم أو تكفيرهم أو عقوبتهم أو التفريق بينهم وبين أزواجهم . وهذا الاعراض عن المشركين المعاندين واقوالهم وافعالهم تشريع ثابت سار عليه النبى والمؤمنون فى مكة مع كفار قريش وفى المدينة مع المنافقين ، ومع اختلاف وضع النبى والمؤمنين بين مكة والمدينة. ففى بداية الدعوة جاءه الأمر بالتبليغ وبالاعراض عن المشركين ، كقول تعالى «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين : الحجر ٩٤» ، خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين : الاعراف ١٩٩» وتكرر ذلك فى آيات أخرى« الانعام ١٠٦» ، «السجدة ٣٠» «النجم٢٩».

ونزل هذا التشريع بالاعراض عن أذى الكفرة ليكون تشريعا عاما للمؤمنين حتى إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ، وإذا مروا باللغو مروا كراما «الفرقان ٦٣، ٧٢» ، وإذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين: القصص ٥٥».

والآيات الكريمة السابقة نزلت فى مكة ،وبعد أن صارت للمؤمنين دولة وقوة لم يتغير التشريع بل جاءته مصداقية التطبيق الواقعى فى التعامل مع المنافقين إذ كانت الآيات تنزل تأمر بالاعراض عن اذى المنافقين وتآمرهم وأقوالهم وتحركاتهم ، ونعطى أمثلة قرآنية:

– كان المنافقون يتركون السلطة القضائية للدولة الاسلامية ويحتكمون إلى غيرها ويرفضون الدوة بالتحاكم أمام النبى ويصدون عنه صدودا ،

وينزل القرآن يأمر النبى بالأعراض عن أولئك المنافقين ويقول تعالى «أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فاعرض عنهم : النساء ٦٣».

– وبعضهم كان يدخل على النبى يقدم له فروض الطاعة ثم يخرج من عنده ليتآمر وينسب للنبى احاديث لم يقلها ، وينزل القرآن يفضح تآمرهم ويأمر النبى بالإعراض عنهم، يقول تعالى« ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب ما يبيتون فاعرض عنهم وتوكل على الله: النساء ٨١».

– وكان المنافقون يعقدون مجالس للاستهزاء بآيات الله ودينه ورسوله وكان مناخ الحرية فى دولة النبى يسمح لهم بهذا ، بل كان النبى يحضر أحيانا تلك المجالس حيث يخوض المنافقون مع فى آيات الله ، ونزل التشريع القرآنى يأمر النبى بالاعراض عن الجلوس مع المنافقين حين يخوضون فى آيات الله ، فاذا تحدثوا فى موضوع آخر فلا بأس بأن يعود ليجلس معهم ، يقول تعالى «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين: الانعام ٦٨».

إذن هو تشريع بالاعراض عنهم وليس بمنعهم من الخوض فى آيات الله، وهو تشريع بعدم الجلوس معهم حين يخوضون فى آيات الله فقط ، وليس بتحريم الجلوس معهم على الاطلاق . ولكن بعض المؤمنين استمر يحضر هذه المجالس التى يخوض فيها اعداء النبى فى آيات الله ، فنزل قوله تعالى يذكرهم بالتشريع السابق الذى نزل فى القرآن ويهددهم إن لم يقاطعوا تلك المجالس عندما تخوض فى آيات الله فإن الله تعالى سيعتبرهم كالمنافقين والكافرين. يقول تعالى للمؤمنين «وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم

جميعا: النساء ١٤٠».

وامتثل المؤمنون للتشريع فقاطعوا مجالس الخوض، فكان ان تحرر المنافقون من كل حرج ، وحولوا تلك المجالس إلى كفر صريح واستهزاء بالله ورسوله وكتابه ونزل قوله تعالى للنبى «ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم كانوا مجرمين: التوبة ٦٥- ٦٦».

أى ارجاء الحكم عليهم إلى الله تعالى ، هو الذى يعفو ، وهو الذى يعذب ، أما النبى فقد أمره ربه أن يعرض عنهم وعن ايذائهم له، وقال له تعالى من قبل فى سورة الأحزاب «ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله: الأحزاب ٤٨».

وكان مناخ الحرية يسمح لهم بهذا الايذاء للنبى ويتحمل النبى وينزل القرآن يدافع عن النبى ويقول عن المنافقين « ،ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم : التوبة ٦١». وهذا المناخ المتحرر جعل بعض المؤمنين يقع فى إيذاء النبى أيضا فقال تعالى «إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا: الأحزاب ٥٧» . وقال يحذر المؤمنين من إيذاء النبى «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين أذوا موسى: الاحزاب٦٩.» ،وجريمة ايذاء النبى لم يكن لها عقاب وفتوى فى تشريعات الاسلام، وذلك اكتفاء باللعنة والعذاب المهين لمن لا يتوب.

ومن السخرية والايذاء إلى التآمر على النبى والمؤمنين وقت الشدة فى الحروب والغزوات والتقاعس عن الدفاع عن المدينة ، ثم قيامهم بإنشاء مسجد الضرار ليكون وكرا للتآمر ، ولم يأمر الله تعالى رسوله بحرق ذلك المسجد ، بل أمره فقط بألا يقوم فيه بالصلاة ، ويعنى ذلك أنه كان يحضر الصلاة فى ذلك المسجد إلى أن كشف القرآن حقيقته ، والله تعالى

وصف ذلك المسجد بانهم اتخذوه «ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وأرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل أى وكر كامل للتخريب ، ومع ذلك فإن الاجراء الوحيد الذى نزل به تشريع القرآن هو قوله تعالى للنبى « لا تقم فيه أبدا » . ولم يعجب هذا التشريع فقهاء العصر العباسى فاخترعوا حديثا يزعم أن النبى قام بحرق ذلك المسجد وتدميره، والله تعالى يعلم أن ذلك التزييف سيقال بعد النبى ، لذا قال تعالى عن ذلك المسجد « لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم : التوبة ١١٠ » أى لا يزل قائما ولم يتعرض للهدم والتدمير كما زعم رواة الاحاديث .. أى أنه نفس التشريع ، الاعراض عن المنافقين مهما قالوا ومهما فعلوا طالما كان الفعل لا يدخل ضمن حمل السلاح وسفك الدماء .. أو كان لا يدخل فى حقوق البشر .. وعلى سبيل المثال فان كبير المنافقين عبد الله بن أبى كان الذى تولى الحملة الدعائية الكاذبة فى حديث الافك ، وقال تعالى عنه «والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم : النور ١١ » ، ومات ذلك الزعيم المنافق على فراشه ، لم يتعرض لحد الردة المزعوم، ولم يعقد له النبى محكمة تفتيش مع أن القرآن نزل يحكم بكفره ، ولم يحكم النبى بالتفريق بينه وبين زوجاته ، وكانت له عدة زوجات.

إن النبى الذى أرسله رب العزة جل وعلا رحمة للعالمين كان رفيقا بأولئك المنافقين الذين كانوا يؤذونه ويكيدون له، وكان يستغفر لهم ويلبى بعض مطالبهم أملا فى استمالتهم ،وجاءه العتاب من ربه حين استغفر لهم فقال له تعالى« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم: التوبة ٨٠ » وحين اذن لبعضهم فى التخلف عن غزوة ذات العسرة قال له تعالى« عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين: التوبة ٣ ».

لقد تركز التشريع القرآنى فى الاعراض عن المنافقين دون تعرض لهم

بالإيذاء أو الاستتابة أو الاستمالة ، وحين تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة ذات العسرة وفضح الله مكائدهم ، أنبأ رب العزة بأن المنافقين القاعدين فى المدينة سيقابلون جيش المؤمنون فى عودته يحلفون لهم بالايمان الكاذبة باعذار وهيمة حتى يعرض المؤمنين عنهم، حسبما تعودوا ، وأمر الله تعالى المؤمنين بالاعراض عنهم اكتفاء بما سيحدث لهم فى جهنم ، يقول تعالى« سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون : التوبة ٩٥ ».

وهكذا عاش المنافقون فى دولة النبى فى حرية كاملة آمنين من الملاحقة والعقاب ، مع ان الديمقراطيات المعاصرة تضع تصرفاتهم فى قائمة قوانين العقوبات ، ولكن تشريع القرآن جاء بحرية لم تعرفها العصور . الوسطى ولم تعرفها العصور الراهنة ، ولذلك قام فقهاء العصر العباسى بصياغة تشريعات تتفق مع واقع العصور الوسطى ،والحركة السلفية الراهنة تخاصم عصرنا الراهن، عصر الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وتريد الرجوع بنا إلى تشريعات العصر العباسى فى القرون الوسطى، وتخاصم الفكر الإسلامى المستنير الذى يريد التعرف على التشريع القرآنى الذى جعله الله تعالى حجة على البشر إلى قيام الساعة.

الاستتابة

ولا يتورع فقهاء السلفية عن طلب الاستتابة ممن يخالفهم فى الفكر ، وإلا اعتبروه مرتدا ، فهل الاستتابة من تشريعات القرآن؟ وبمعنى آخر ، هل يجوز لبشر أن يستتيب واحدا أو مجموعة من البشر؟.

ان كلمة «تاب» ومشتقاتها جاءت فى القرآن الكريم ٨٧ مرة ،وليس منها على الاطلاق كلمة« استتاب» أو« استتابة» لان التوبة علاقة خاصة بين العبد وربه جل وعلا ، وليس لبشر حتى النبى أن يكون واسطة بين الله تعالى وعبده فى موضوع التوبة ، ومن يجعل نفسه واسطة بين الله تعالى



والناس يطلب منهم التوبة على يديه باسم الله فقد أساء فهم الاسلام ، ولا نقول أكثر من هذا ، وكل ما نطلبه منه أن يعطينا ما يثبت أن الله تعالى أعطاه تفويضا بأن يتلقى التوبة من العباد، أو أن يطلب منهم- باسمه- التوبة ، أو الاستتابة .وتفصيلات القرآن فيها الكفاية ،ومنها ننقل بإيجاز الآتى:

١- فى أمور العقيدة وخفايا القلوب حيث لا يعلم السرائر إلا الله تعالى ،فالتوبة لا تكون إلا لله وحده ، والله تعالى أمر النبى الكريم أن يعلن ذلك« قل هو ربيلا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب : الرعد ٣٠» ، أى إليه وحده أتوب وعليه وحده أتوكل وبه وحده أومن ،جل وعلا ، هذا ما يقوله النبى ,وما ينبغى أن يقوله كل مؤمن ، المتاب أو التوبة يتوجه بها لله وحده.

٢- لان النبى والبشر لا يعلمون السرائر، ولان الله تعالى وحده هو الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور كانت التوبة على العباد صفة إلهية لله وحده ، يقول تعالى« فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه: المائدة ٣٩ » ومن الذى يستطيع أن يعرف حقيقة تلك التوبة وذلك الصلاح إلا الله علام الغيوب؟ ويقول تعالى للمؤمنين فى تشريع الصيام « علم الله انكم كنتم تختاتون انفسكم فتاب عليكم : البقرة ١٨٧ » ، فمن الذى يعلم تلك الأمور الخاصة السرية غير الله؟.

٣- ولأن التوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى فإن من صفاته أو اسمائه الحسنى « التواب » وقد تكرر وصفه بالتواب احدى عشر مرة .. لأن التوبة على العباد شأن خاص بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، مرهونة بمشيئته تعالى ، يقول تعالى « ويتوب الله على من يشاء : التوبة ١٥ »، ويقول « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم: الاحزاب ٢٤ » ، وليس لبشر أن يتدخل فى مشيئة الرحمن ليتوب على شخص أو يعذب آخر.

٤- ان البشر جميعا امام التواب الرحيم سواسية فى طلب التوبة ، كل منهم يطلبها من الله سواء كان نبيا أو حتى من المنافقين أو من العصاة أو من الصالحين ، يقول تعالى عن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد البيت الحرام ويدعوان الله تعالى قائلين« وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم : البقرة ١٢٨ ، ويقول تعالى عن خاتم النبيين وأصحابه من المهاجرين والانصار حين اشتد عليهم الأمر فى غزوة ذات العسرة « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم: التوبة ١١٧ » ،فالله تعالى هو الذى يتوب على الانبياء والمؤمنين لانه وحده الذى يعرف ما يدور فى قلوب البشر.

والله تعالى يفتح باب التوبة للعصاة قبل الموت « انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما : النساء ١٧ » ،فالله تعالى العليم الحكيم هو الذى يقدر مدى الصدق والايمان لدى كل تائب ومدى عزمه على التوبة وتصميمه عليها والظروف الخاصة بكل تائب.

إذن فالاستتابة- أو طلب التوبة-حق لله وحده ولم يعط رب العزة هذا الحق لنبى من الانبياء ،فكيف نعطى انفسنا حقا من حقوق الله تعالى الآلهية؟.

ارجاء الحكم لله يوم القيامة

إن تشريع القرآن لا يعطى لأى بشر الصلاحية فى الحكم على العقائد وما فيها من اختلافات ، ولكن يرجئ الحكم عليها إلى الله تعالى يوم القيامة، وقد شاء الله تعالى أن يخلق البشر مختلفين فى الآراء والمذاهب والمعتقدات إلا من اعتصم بالكتاب واسلم نفسه له دون هوى، يقول تعالى فى تقرير سنته فى الخلق واختلافهم « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم : هود ١١٨، ١١٩ ».

وتاريخ البشر الدينى سلسلة لا تنقطع من الاختلافات بين« الأديان» وفى داخل كل« دين» وفى داخل كل طائفة ،وفى داخل كل مذهب ، ولقد اختلف اليهود والنصارى وادعت كل منهما انها على الحق وأن الاخرى على الباطل ، وقال تعالى يؤجل الحكم عليهم إلى يوم القيامة «فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : البقرة ١١٣ ».

وفى داخل اليهود كانت ولا تزال خلافات كثيرة بعد نزول التوراة ، فقال تعالى «ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : يونس ٩٣ » وقال عن اختلافهم فى السبت «وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون : النحل ١٢٤ ».

واختلف النصارى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وقال تعالى فى تأجيل الحكم بينهم إلى يوم القيامة « ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون: آل عمران ٥٥ ».

وعن الاختلاف بين من يعبد الله وحده ومن يتخذ وليا مع الله قال تعالى أن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون «الزمر ٤٦ » وعن العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب قال تعالى «فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : المائدة ٤٨ ».

وعن علاقة النبى بمن يحاربه قال تعالى «انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون : الزمر ٣٠ ، ٣١ » .أو يقول لهم فى حواره معهم «قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم : سبأ ٢٦ »، وقال الله تعالى للنبى فيمن يجادله بالباطل وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون ، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون : الحج ٦٨ ، ٦٩ ».

والبشر ليسوا فقط المسلمين وأهل الكتاب ، بل كل أولاد أدم ، وقد تأجلت

خلافاتهم الدينية إلى يوم القيامة ، يقول تعالى عن كل نفس بشرية « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون : الانعام ١٦٤ ،وعن الحكم بين البشر جميعا يوم القيامة يقول تعالى يأمر النبى باعلان هذه الحقيقة « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون : الزمر ٤٦ ».

ونكتفى بهذا القدر من آيات القرآن التى تؤكد أن الخلافات الدينية بين البشر مرجعها إلى الله تعالى وحده يوم القيامة ، وهذا ما يسرى على الانبياء أنفسهم . فهل يجوز بعد هذا لمسلم محب لدينه أن يدعى لنفسه خصوصية من خصوصيات رب العزة؟.

ان أمور العقيدة مرجعها إلى الله تعالى يوم القيامة ، ولكن هناك حقوقا للبشر فى الدماء والأموال والاعراض ، ومن يقترف جناية على غيره فالعقوبات تنتظره من المجتمع فى الدنيا قبل الآخرة ، وذلك تشريع الله سبحانه وتعالى فى ضبط حركة المجتمع ،وهنا يكون مجال القضاء البشرى فى حماية حقوق الافراد مع الالتزام بتشريع القرآن وسريانه على الأمير والاجير دون تحريف أو تزييف ،وعلى سبيل المثال فقد توسعوا فى عقوبة القتل- وهى فى القصاص -فقط وجعلوها تشمل الزنا فى حالة الاحصان ، وتشمل ترك الصلاة والخروج عن الجماعة ،ونسوا حرص الاسلام على حقن الدماء.

التفريق بين الزوجين

يزعم الزاعمون بان من تشريعات الاسلام التفريق بين المرتد وزوجه ، وقد سبق أن المنافقين الذين حكم الله تعالى بكفرهم، لم يحكم بالتفريق بينهم وبين ازواجهم ومفهوم « التفريق بين المرء وزوجه » جاء بهذا النص فى القرآن الكريم فى موضعين:

الأول: فى قوله تعالى فى تشريع الطلاق «فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف : الطلاق٢» ، وقوله تعالى «وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته : النساء »، والواضح هنا أن قرار التفريق راجع للزوج أو للزوجين معا ، وليس من طرف خارجى لا شأن له بالموضوع.

الثانى: فى قوله تعالى عن أعوان الشياطين أصحاب الأعمال السحرية المزعومة «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه: البقرة ١٠٢» هنا، يأتي التفريق بين الزوجين من عامل خارجى ، أو تدخل شيطانى يزين لأحد الزوجين أو كليهما كراهية الآخر والله تعالى يتوعد صاحب هذا العمل بسوء وبأنه لا خلاق له وانه بئس الثمن الذى باع به نفسه للشيطان.

إلى هذا الحد يبلغ حرص القرآن على سلامة الحياة الزوجية وأن تكون بمنجاة من التدخل الخارجى الذى يهددها ، بل إن القرآن جعل من واجب المجتمع أن يتدخل لاصلاح ما بين الزوجين إذا احتدم الشقاق حتى يوفق الله بينهما «النساء ٣٥» ،فالتدخل الخارجى يكون للاصلاح فقط وليس لتخريب البيوت.

والزواج أقدم شريعة إلهية ، إذ هو البديل الشرعى للزنا والبغاء المحرم ، والله تعالى أخبر بان أكثرية البشر يختلط لديها الايمان بالمشرك «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون: يوسف ١٠٦» وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين : يوسف ١٠٣» ، فهل يكون زواج أكثرية البشر باطلا؟ ولكن الاعتقاد القلبى شئ وتشريع الزواج شئ آخر ،فالشرك يتزوج زواجا شرعيا صحيحا بغض النظر عن عقيدته ، واجداد النبى عليه السلام عاشوا قبل الإسلام وفى وسط مجتمع مشرك، ومع ذلك فإن النبى عليه السلام جاء من نكاح شرعى عبر الآباء والاجداد ، والله تعالى اعلم حيث يجعل رسالته وقبل أن تأتيه الرسالة تزوج محمد بن عبد الله زواجا شرعيا من السيدة خديجة ،وكذلك فعل أصحابه ، ولم يحدث بعد الإسلام أن نزل تشريع يعتبر

الزيجات السابقة فاسدة لأنها تمت في مجتمع مشرك ، ولكن الذي حدث ان القرآن اعتبر كل الزيجات السابقة للاحياء والأموات زيجات شرعية وافتخر العرب بحفظ انسابهم عن طريق ذلك الزواج الذي كان قبل الاسلام ، واستمر الصحابة بنفس الزواج ويحمل أولادهم نفس الانساب بل ان تشريعات القرآن في الزواج جاءت بتعديلات كلها في صالح المرأة ، ولكن لم تتعرض لكيفية عقد الزواج ، لان الكيفية كانت ولا تزال شرعية.

بل هناك أكثر من ذلك ، فقد جاءت التعديلات التشريعية في القرآن بتحديد المحرمات في الزواج من الام والبنت والاخت وخلافه ، وبعض هذه التعديلات كانت تمس حالات محدودة كانت موجودة عند نزول ذلك التشريع في المدينة، وأعني بذلك ما كانت الجاهلية تبيحه من زواج الابن ممن تزوجها ابوه من قبل، ومن جمع الزوج بين الاختين في الزواج. نزل القرآن يحرم ذلك ويقول « ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » ، وقال في تحريم الجمع بين الاختين في الزواج «وان تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف : النساء ٢٢ ، ٢٣».

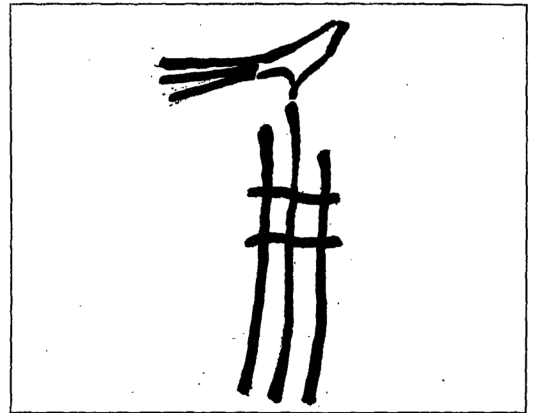
لقد اعتبر القرآن زواج الابن من مطلقة أو أرملة ابيه فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، وتلك صيغة مشددة في التحريم ،كما حرم أيضا الجمع بين الاختين في الزواج ، ومع ذلك فقد استثنى من التحريم تلك الحالات الفردية التي سلفت وكانت موجودة حين نزل التشريع القرآني ، وأصبح التحريم متعلقا بأي حالة تأتي بعد نزول ذلك التشريع ، والمعنى أن القرآن لم يحكم بالتفريق في تلك الحالات الفردية المعدودة ، وكان يمكن التضحية بها في سبيل قانون إلهي مستمر إلى قيام الساعة ، ولكن إلى هذا الحد بلغ حرص القرآن على استمرار الاسرة حتى لو كانت تخالف تشريع القرآن ، فنزل التشريع الساري ولكن مع استثناء بالابقاء على تلك الاسر القليلة العدد. وهكذا لا نجد على الاطلاق في تشريع الاسلام تفريقا بين زوجين في المجتمع

المسلم المسالم الآمن.

وهناك حالة استثنائية بالغة الخصوصية تعرض لها المسلمون والمشركون بعد الهجرة ،فقد هاجر رجال للمدينة ورفضت زوجاتهم الهجرة تمسكا بالدين والوطن ، وهاجرت نساء للمدينة وتركن ازواجهن تمسكا منهن بالاسلام واصبحت المدينة ومكة فى حالة حرب، وتم الانفصال التام بين أولئك الرجال والنساء ، وكان لابد أن ينزل تشريع يتحول به الانفصال الفعلى إلى فراق شرعى حتى تتزوج المشركة فى بلدها من مشرك فى مكة ،وحتى تتزوج المسلمات والمسلمون المهاجرون فى المدينة . ونزل حكم الله بأن يدفع الرجال منهور النساء للازواج السابقين ، يفعل ذلك المؤمنون والمشركون ، ويبدأ زواج جديد بعد اتمام الفراق الواقعى ، وذلك ما جاء فى سورة الممتحنة التى نزلت بتحريم الموالاة بين المسلمين والمشركين المعتدلين ، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين والمشركين المعتدين، مع الامر بالبر والقسط مع المشركين الذين لم يعتدوا على المسلمين ولولا حالة العداء والحرب بين مجتمعى مكة والمدينة ما احتاج المسلمون والمشركون إلى نزول هذا التشريع ، فهو تشريع لبناء الاسر وليس للتفريق بين الازواج ، لان التفريق كان واقعا مؤلما وكان يستلزم حلا ، وجاء الحل . وتذكر كتب السيرة ان ابنين لابى لهب كانا على وشك الزواج ببنتين للنبى ، ثم تركاهما بتأثير أبى لهب وأم جميل ، وتذكر السيرة أيضا أن زينب بنت النبى تزوجت من مشرك بلغ من اخلاصه لعقيدته انه اشترك مع المشركين فى موقعه بدر ، ثم اسره المسلمون ، وبعثت زوجته بنت النبى بعقد لتفتدى به زوجها من ابيها إلى المدينة ، أى أنها بقيت مع زوجها فى مكة ولم تتركه لتهاجر مع ابيها إلى المدينة ، مع اسلامها ، ثم تركت زوجها فيما بعد ، وهاجرت ثم لحق بها زوجها مؤمنا ، والمستفاد من ذلك أن الزواج شريعة الله بغض النظر عن العقائد ، وانه ليس فى تشريع الاسلام التفريق بين الزوجين بسبب العقيدة إلا إذا اختار ذلك وافترقا عن بعضهما بمحض ارادتهما ، والله المستعان.

الديوان الصغير

الحسبة بين الدولة المدنية والدولة الدينية



مركز المساعدة القانونية
لحقوق الإنسان

تم إعداد الدراسة التالية قبل أن يذاع مشروع القانون المنظم لدعاوى الحسبة. وبمراجعة النص الكامل لهذا المشروع ومذكرته الإيضاحية كما نشر فى جريدة الجمهورية بعددها الصادر فى ١٩٩٦/١/٢٧ ، نجد أن تلك المذكرة - بعد أن تستعرض فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفكرة الإخلال بحقوق الله تعالى أو بالحقوق التى يغلب فيها حق الله تعالى- تنص على أنه : « لكل مسلم استعداء القاضى مبلغا إياه بوقوع إخلال بحق الله تعالى ، أو بتلك الحقوق التى يكون حقه غالبا فيها، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة ،لإتخاذ ما يلزم لتقويمها عند ثبوتها ».

لا يجد المركز ثمة ما استجد بحيث يدفعه لإعادة النظر فى هذا التقرير لأن ما تضمنه المشروع ومذكرته الإيضاحية ، إنما يؤكد بجلاء واضح صحة الاستنتاج الذى يخلص إليه التقرير من أن دعوى الحسبة إنما فى حقيقتها تعكس رؤية طائفية وتقيم تمييزا على أسس دينية ضد المواطنين غير المسلمين ،كما تقيم من الناحية الأخرى تمييزاً قائما على أساس الجنس ضد المرأة سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

كما تتعارض مع حقيقة أن مجتمعنا المعاصر قائم على أسس قومية، ولم يعد يتخذ من الديانة أساسا له .فالحسبة كمفهوم، وكنظام ، وكدعوى لم تعد تتسق مع حق المواطنة المعاصرة،أى لم تعد تتسق مع الدولة المدنية، وانما تتسق كامل الاتساق مع الدولة الدينية، وبشكل خاص مع الدولة الدينية التى لا تعرف تعدد الإديان كمجتمعنا المصرى المعاصر.

١- تعريف الحسبة وتطور نطاقها:

عرف الإسلام نظام الحسبة، بوصفها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد اقتصر عمل المحتسب على ما يتعلق بالغش والتدليس، وهو ما ينعكس على معناها الشرعى، فأصل الحسبة الشرعية مشارفة السوق(شارف الشئ : قاربه ودنا منه) والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الغش والتدليس فى المعايش وغيرها فى المكاييل والموازين وله حمل المماطلين على الإنصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا إنفاذ حكم وكأنها أحكام ينزه القاضى عنها لعمومها وسهولة أغراضها.فتدفع إلى صاحب هذه الوظيفة نيقوم بها فوضعها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء.

تطور نطاق الحسبة ليصبح أمرا بمعروف ظهر تركه ، ونهيا عن منكر ظهر فعله ، وإصلاحا بين الناس (الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية- القاهرة- دار الغد- ص٦٠٤ حتى ٦٠٥) .كانت الحسبة تدخل فى ولاية القاضى فى كثير

من العصور ، ولكن لما صار نظر السلطان عاما فى السياسة ، اندرجت فى الوظائف التابعة له ، و أفردت بالولاية . وقد أدى إنسلاخ ولاية الحسبة عن القضاء واعتبار سلطة المحتسب مستمدة من سلطة الخليفة، إلى مساوئ كثيرة، من أهمها تنازع الاختصاص بين الولايات ، وافتيات المحتسبين ، ورجال الشرطة ، على اختصاصات القضاة، كما أدى إلى قيام السلاطين بتسخير المحتسبين لتحقيق مآربهم الخاصة، لدرجة قيامهم بمنع المصريين من كثرة الكلام ،لما اشتهروا به من السخرية بالمماليك وسلاطينهم (دعاوى الحسبة- د. حسن اللبيدى- مركز الطباعة والنسخ- أسيوط -١٩٨٣-ص١٦٨ و١٦٩).

٢- تعريف المحتسب:

هو الذى يقوم بوظيفة الحسبة وهو من أرباب الوظائف الدينية، وقد ثبت أن الرسول هو أول من استعمل المحتسب فى نظامه ،حيث تولى ذلك الأمر بنفسه فكان يتفقد الأسواق ويأمر وينهى، كما ثبت أنه استعمل من أصحابه من يقوم بهذا الأمر حيث استعمل سعيد بن العاص على سوق «مكة المكرمة» واستعمل عمر بن الخطاب على «سوق المدينة المنورة» (الموسوعة -٦١٦ و٦١٧) إلا أن لفظ المحتسب لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨-١٦٩هـ) .(الموسوعة-ص٦٠٥).

٣- نوعا ولاية الحسبة:

تنقسم الحسبة من ناحية أسباب ولايتها إلي ولاية أصلية (المتطوع) وولاية تبعية (المحتسب).

أ- الولاية الأصلية (المتطوع):

وهى التى تستمد أساسها من تكليف الشارع بها لكل من تتوافر فيه الأهلية اللازمة للقيام بها، وذلك فى الحالات التى يكون فيها المكلف أولى الناس بإناطة الحكم إليه فى القيام بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،على من ولاهم عليه عليه كزوجته وأولاده ، أو المرءوسين له فى العمل فهو بحكم ولايته عليهم يعد من أولى الناس بإناطة القيام بها إليه .(عن الحسبة ودور الفرد فيها- د. عبد الله مبروك النجار- كتاب مجلة الأزهر- شهر ذى الحجة ١٤١٥هـ ص٥٣).

ب- الولاية التبعية (المحتسب):

وهى الولاية المستمدة من قرار التعيين الصادر من الخليفة أو الأمير ،

وتتضمن هذه الولاية كما تتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على وجه الطلب مباشرة ، وتتضمن كذلك القيام بما يؤدى إلى اجتناب المنكر ،لا على وجه الطلب ، بل على وجه الادعاء والاستعداء ، وذلك بالتقدم إلى القاضى بالدعوى ، وبالشهادة لديه ، أو باستعداء المحتسب (النجار- ص٥٤).

ج- الفرق بين سلطات المتطوع والمحتسب:

١- فرض الحسبة متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على المتطوع من فروض الكفاية.

٢- قيام المحتسب بالحسبة واجب لا يجوز أن يتشاغل بغيره ،وقيام المتطوع بالحسبة من نوافل الأعمال يجوز تشاغله عنه لغيره.

٣- المحتسب منصوب للاستعداء إليه فيما يجب إنكاره وإبلاغه بالمخالفات التى تقع من المنحرفين ،والمتطوع ليس منصوبا للاستعداء.

٤- منْ واجبات وظيفة المحتسب أن يجيب طلب من استعدى به وأبلغه بالجريمة أو المخالفة ، وذلك ليس على المتطوع.

٥- على المحتسب أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ، ليصل إلى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر، ليأمر بإقامته ،وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص.

٦- للمحتسب أن يتخذ على الإنكار أعوانا ،لأنه منصوب لهذا العمل .وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانا.

٧- للمحتسب أن يعزر على المنكرات الظاهرة ، ولا يتجاوزها إلى الحدود وليس للمتطوع أن يعزر على منكر.

٨- للمحتسب أن يرتزق من بيت المال فيأخذ أجره من الدولة، وليس للمتطوع أن يأخذ أجرا على عمله.

٩- للمحتسب أن يجتهد فيما تعلق بالعرف دون الشرع ، فينكر ما أداه إليه اجتهاده، وليس للمتطوع ذلك.(النجار- ص٥٥ و٥٩).

د- شروط المحتسب:

لقد أوصلها بعض الفقهاء إلى سبعة شروط يجب أن تتوافر فى المحتسب ، وسنقصر كلامنا هنا على شرط إسلام المحتسب وشرط الذكورة

*** إسلام المحتسب:**

يجب أن يكون المحتسب مسلما، ذلك أن الحسبة عمل يتضمن تنفيذ أحكام إسلامية تتصل بالعقيدة الدينية ، أو تستمد أحكامها من مصادر التشريع

الإسلامى فى الكتاب والسنة والإجماع (النجار-ص٥٨) . وبالنسبة لدعوى الحسبة تحديدا يكيف الفقهاء هذا الشرط علي النحو التالي: لما كانت دعوى الحسبة نوعا من الشهادة فإنه يشترط فيمن يدعى حسبة الشروط التى تطلب فى الشهادة .ومن شروط جواز قبول الشهادة فى الشريعة الإسلامية أن يكون الشاهد مسلما لأن فى الشهادة ولاية، ولا ولاية لكافر على مسلم (نظرية المصلحة فى الدعوى- د. عبد المنعم الشرقاوى -القاهرة - ط أولى ١٩٤٧ -ص٣٧٩).

*** شرط الذكورة:**

ذهبت طائفة من أهل العلم إلى اشتراط الذكورة ،فيمن يتولى الحسبة ، وقالوا أن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجالس ، ولا أن تخالط الرجال أو تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ،وعند أبى حنيفة تلى الحكم فيما تجوز لها فيه الشهادة (النجار -ص٦٧) ويشترط فى بعض الأمور كالحدود أن يكون الشاهد ذكرا (الشرقاوى -ص٣٨٠) ،وقد ذهب البعض إلى اجازة أن يكون مدعى الحسبة إمرأة بدون أى قيود (اللبيدى -ص١٦٨).

٤- دار الحسبة:

أول من أنشأها عمر رضى الله عنه ،حيث ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق والتفتيش على المكاييل والموازين ومنع الغش فيما يباع ويشترى (الموسوعة -ص٦٠٥) .وفى العهد العثمانى استبدل باسم دار الحسبة اسم البلدية وباسم المحتسب رئيس البلدية(الموسوعة-ص٦٢٤).

٥- دعوى الحسبة:

تكون فى حقوق الله تعالى أو فيما غلب فيه حق الله وهى الحقوق التى يجب على كل مسلم المحافظة عليها ، وعرفها البعض بأنها استعداء من له ولاية القضاء بوجود مخالفة لحق من حقوق الله تعالى أو لحق غلب فيه حق الله تعالى، والشهادة عنده بوقوع هذه المخالفة سواء بطريق الرفع ، أو بطريق الدفع، لاتخاذ ما يلزم بالنسبة لها (اللبيدى -ص٦).

٦- حقوق الله فى لغة القانون المعاصر:

الكثير من الباحثين الإسلاميين ،عند تناوله لنظام الحسبة يجعل حقوق الله مرادفة لفكرة النظام العام والآداب العامة المعمول بها فى نطاق القانون الوضعى المعاصر .فاللبيدي مثلا يذهب إلى أن القانون المعاصر قد عبر عن فكرة حقوق الله ،بأنها تلك الحقوق التى ترتبط بالنظام العام والآداب العامة

فى المجتمع ،حيث اعتبر القانون المعاصر بعض هذه الحقوق لصيقة بشخصية الإنسان لا يجوز له التنازل عنها ، وربط بعضها الآخر بفكرة النظام العام والآداب العامة ، فلا يجوز للفرد الاتفاق على ما يخالف مقتضيات النظام العام ،حتى لو كان فى ذلك تضحية بمصلحته الخاصة ،وتشكل فكرة النظام العام والآداب ، قدرا من القواعد ، تمثل الحد الأدنى من القواعد اللازمة لحماية المجتمع من الانحلال (اللبيدى -ص٥٤).

وهنا نجد مفارقة ففكرة النظام العام العلمانية نجدها تتحول إلى فكرة حقوق الله ،وهى فكرة دينية عقائدية فالأولى تخاطب جميع المواطنين بغض النظر عن موقفهم من المعتقدات الدينية والثانية تخاطب أتباع دين محدد ولا تخاطب جميع المواطنين . وهذا الإحلال لا يستقيم مع حقائق العصر إلا إذا نزعنا الرداء الدينى لفكرة حقوق الله، أو جردنا غير المسلمين من حق المواطنة ، أو على الأقل اعتبرناهم يتمتعون بحق مواطنة منتقص.كما ينتقص من حق المرأة المسلمة مقارنة بالمواطن المسلم. وبعبارة أخرى : قبول مبدأ تأسيس الدولة على أسس دينية . إن تصور القائلين بضرورة تعميم دعاوى الحسبة فى كل فروع القانون المصرى إنما ينطوى على رفض تأسيس الدولة المدنية الحديثة والمطالبة بتأسيس الدولة الدينية.

٧- توسع القضاء الادارى فى شرط المصلحة لا علاقة له بدعاوى الحسبة:

من المبادئ المستقرة فى فقه القانون : أنه حيث لا مصلحة فلا دعوى ،وهو ما نص عليه صراحة فى المادة الثالثة من قانون المرافعات وفى الفقرة الأولى من المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة. وإن كان هذا لا يمنع من اختلاف نطاق ومدلول مفهوم المصلحة بين فقه القانون الخاص وفقه القانون العام ، بل من الممكن أن يختلف هذا النطاق من مجال قانونى إلى آخر فى داخل ذات الفقه .ففى قانون المرافعات نجد أن المصلحة التى تبرر قبول الدعوى يجب أن تستند حق اعتدى عليه أو مهدد بالاعتداء عليه.وهى ذات القاعدة التى تسرى على دعوى التعويض أمام القضاء الادارى (دعوى القضاء الكامل) حيث يشترط فى رافعها أن يكون صاحب حق أصابته جهة الادارة بقرارها الخاطئ بضرر يراد رتقه وتعويضه عنه ،فى الحالتين ربط بين المصلحة والحقوق الشخصية.. أما فى دعوى الإلغاء أمام القضاء الادارى فنجد فصلا تاما بين المصلحة والحق وترتبط المصلحة هنا بالمركز القانونى ،حيث لا يشترط فى المصلحة التى تبرر قبول الدعوى أن تستند إلى حق لرافعها اعتدت عليه

السلطات العامة، أو مهدد بالاعتداء عليه بل يكفى أن يكون ذا مصلحة شخصية ومباشرة فى طلب الالغاء والمصلحة الشخصية هنا معناها أن يكون رافع الدعوى فى مركز قانونى خاص أو حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعله -ما دام قائما- مؤثرا فى مصلحة ذاتية للطالب تأثيرا مباشرا.

وقد توسع القضاء الادارى فى تطبيقه لشرط المصلحة فى دعاوى الالغاء فاكتفى فى حالات بقبول الدعوى تأسيسا على مجرد توافر صفة المواطنة لرافعها، فيكفى هذا ليكون له مصلحة شخصية مباشرة فى الطعن على القرار محل البحث. قضت محكمة القضاء الادارى بتاريخ ١٩٨٠/٤/١ فى الدعوى رقم ٦٩٢٧ بأنه:« من المقرر أن صفة المواطن تكفى فى بعض الحالات لاقامة دعوى الإلغاء طعنا فى القرارات الادارية التى تمس مجموع المواطنين المقيمين فى أرض الدولة وتعرض مصالحهم أو صحتهم أو مستقبلهم للأخطار الجسيمة » وكانت الدعوى تتعلق بدفن النفايات الذرية فى الصحراء المصرية(اللبيدى- هامش ص٢٨).

وهذا التوسع فى مفهوم المصلحة الشخصية لا يجعل دعوى لإلغاء دعوى حسبة ،لأن دعوى الالغاء مازالت تستلزم المصلحة الشخصية المباشرة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فديانة المدعى لا دخل لها فى تحديد قبول الدعوى أو عدم قبولها طالما أن هذه الديانة لا دخل لها فى تحديد مركزه القانونى،وهو الأمر الذى يأخذ وزنا مختلفا فى دعاوى الحسبة، فرافعها يجب أن يكون مسلم الديانة ،وإذا رفعها غير المسلم تعين عدم قبولها طالما لم يقدم المتمسكون بتطبيق دعاوى الحسبة فى التشريع المصرى الوضعى الراهن اجتهادا جديدا ينزع عن دعاوى الحسبة غلافها الطائفى الدينى لتصبح متفقة مع حقائق مجتمعنا المعاصر.

إن كل من فحصنا مساهمتهم فى دعاوى الحسبة من المحدثين المنتسبين للفكر الإسلامى ، وجدناهم يدللون على أن القضاء الإدارى المصرى قبل دعاوى الحسبة مستشهدين بأحكام فى دعاوى الالغاء متجاهلين مناقشة الضابط بين التوسع فى مفهوم المصلحة وبين دعاوى الحسبة. انظر فى ذلك : النجار من ص١٩٦وما بعدها ، واللبيدى ص٥٧ وما بعدها ، ود. سليم العوا- جريدة الشعب ، وفهمى هويدى -جريدة الاهرام.

ولذلك سنعرض بالتفصيل لحكم المحكمة الادارية العليا ليوضح خطأ هذه

دراسة حالة:

فى ١٢/ ٣/ ٧٨ أقام الأستاذ عبد الحليم رمضان الدعوى رقم ٩٥٩ لسنة ٣٢ ق يطلب فيها الحكم بإلغاء القرار الصادر من رئيس الجمهورية بمنح أحد المستشارين نائب رئيس مجلس الدولة وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى على سند من أنه ما زال يتبوأ مقعد القضاء وتعرض عليه فى ساحته عشرات القضايا ضد مانح الوسام وبرر توافر الصفة لديه بالقول أنه من أحاد المحامين ومن أحاد المواطنين والمتقاضين.

ودفعت هيئة قضايا الحكومة: «بعدم قبول الدعوى لانتفاء المصلحة والصفة تأسيسا على أن أحكام القضاء الادارى قد اضطردت على أنه يلزم لقبول دعوى الإلغاء أن يكون للمدعى فيها مصلحة شخصية مباشرة . وذلك بأن يكون المدعى فى مركز قانونى خاص بالنسبة للقرار المطعون فيه من شأنه أن يجعل هذا القرار مؤثرا فيه تأثيرا مباشرا .وقد نصت الفقرة(أ) من المادة(١٢ من قانون مجلس الدولة) على أن لا تقبل الطلبات الآتية:

(أ) الطلبات المقدمة من أشخاص ليس لهم فيها مصلحة شخصية ، ويبين من ذلك عدم توافر المصلحة أو الصفة فى رافع الدعوى لأن القرار المطعون فيه لا يمس أى حق من حقوقه أو مركزا قانونيا له: (ص١٢٨ من نص الحكم فى الطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ ق والصادر من المحكمة الادارية العليا فى جلستها المنعقدة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٨٣- والمنشور فى مجموعة المبادئ القانونية التى قررتها المحكمة الادارية العليا -السنة ٢٩- العدد الأول- إصدار المكتب الفنى لمجلس الدولة - الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة- ١٩٨٨- من ص١٢٥ : ١٣٣ - ومبين قرين كل مقتطف رقم الصفحة الموجود بها من المجلد المذكور). وبجلسة ٩ يناير ١٩٨١ حكمت المحكمة بعدم قبول الدعوى .

وأقامت قضاءها على أساس أن المدعى تنتفى مصلحته فى الطعن على القرار المشار إليه ، فهو لا يؤثر فى مصلحة شخصية له تأثيرا مباشرا حتى يقبل منه طلب إلغائه ، وذهبت المحكمة إلى صحة القول بأن تشريعات السلطة القضائية ومجلس الدولة هى من فروع القانون العام المنظمة لولاية المحاكم وولاية القضاء والقضاة إلا أن ذلك لا يخول لأى مواطن الحق فى الطعن على القرار الصادر بالمخالفة لأحكامها ، ذلك أن القوانين التى يترتب على مخالفتها بطلان القرارات الادارية هى بحسب الأصل من تشريعات القانون

العام ، ومع ذلك لا يقبل الطعن على القرارات الادارية إلا إذا مست مصلحة شخصية مباشرة لطالب الإلغاء ، ولا يقبل الطلب من أى شخص لمجرد أنه مواطن يهمه إنفاذ القانون المتعلق بالنظام العام وحماية الصالح العام وإلا أصبحت دعوى الإلغاء من قبيل دعاوى الحسبة(ص١٢٨-١٢٩).

وفى ٤ أبريل ١٩٨١ طعن المدعى على هذا الحكم بالطعن رقم ٦٩١ لسنة ٢٧ق وأسس طعنه عما يتعلق بقضاء محكمة أول درجة بعدم قبول الدعوى لانتفاء الصفة على ركيزتين هما:

الأولى: تستند على الحسبة، وذهب الطاعن إلى« أن الحسبة فى شريعة الإسلام التى جعلها الدستور المصرى المصدر الرئيسى للتشريع ، لم تشرع دعواها إلا لحماية النظام الاجتماعى والأخلاقى ، أى لحماية النظام العام والآداب العامة بالتعبير القانونى المعاصر. وأردف الطاعن أن أحكام التنظيم القضائى لمجلس الدولة والسلطة القضائية تعتبر من فروع النظام العام، فإذا نصت المادة ١٢٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ - وتقابلها المادة ٦٨ من قانون السلطة القضائية -على تحريم معاملة عضو مجلس الدولة بأية معاملة استثنائية ، فإن هذا النص وهو يتعلق بالنظام العام ، يحرم الحكم على خلافه - ويغدو للطاعن الصفة والمصلحة فى الطعن على القرار المطعون فيه (ص١٢٩).

والركيزة الثانية تستند على توافر المصلحة الشخصية المباشرة للطاعن بوصفها مناط الصفة حيث ذهب إلى أنه «بصفته محاميا يتعامل مع دائرة منازعات الأفراد والهيئات بمجلس الدولة- التى يرأسها السيد المستشار - فى عديد من قضاياه المقامة على رئيس الجمهورية مانح الوسام المذكور . ومن ثم فإن للطاعن مصلحة فى نقاء قاضيه وتجرده وحيدته »(ص١٢٩).

وبجلسة ٢٦ نوفمبر ١٩٨٣ حكمت المحكمة الادارية العليا « بقبول الطعن شكلا وفى موضوعه بإلغاء الحكم المطعون فيه وبقبول الدعوى شكلا وبرفضها موضوعا وألزمت المدعى بالمصروفات »(ص١٣٣).

ورفضت تأسيس حكمها بقبول الدعوى لتوافر الصفة على الحسبة وأسست هذا القضاء على توافر المصلحة الشخصية المباشرة لرافع الدعوى ، أى رفضت الركيزة الأولى التى استند إليها الطاعن فى طعنه ، وقالت المحكمة تقعيدا لهذا الحكم ما نصه: « ومن حيث أنه ولئن كانت المادة ١٢ من قانون مجلس الدولة الصادر بالقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ تنص على أن « لا

تقبل الطلبات الآتية

(أ) الطلبات المتقدمة من أشخاص ليست لهم فيها مصلحة شخصية.

(ب) ...»

وقد أطردت أحكام المحكمة الادارية العليا على أنه يجب أن تكون تلك المصلحة شخصية ومباشرة- إلا أنه فى مجال دعاوى الإلغاء وحيث تتصل هذه الدعوى بقواعد واعتبارات المشروعية والنظام العام فإن القضاء الادارى - يؤازره الفقه- لا يقف فى تفسير شرط المصلحة الشخصية عند ضرورة وجود حق يكون القرار الادارى المطلوب إلغاؤه قد أهدره أو مسه- كما هو الحال بالنسبة لدعاوى التعويض وسائر الدعاوى الحقوقية - وإنما يتجاوز ذلك بالقدر الذى يتفق ويسهم فى تحقيق مبادئ المشروعية وإرساء مقتضيات النظام العام ، بحيث يتسع شرط المصلحة الشخصية لكل دعوى إلغاء يكون رافعها فى حالة قانونية خاصة بالنسبة إلى القرار المطعون فيه من شأنها أن تجعل هذا القرار مؤثرا فى مصلحة جدية له . **وجدير بالذكر أن اتساع نطاق شرط المصلحة الشخصية فى دعوى الإلغاء على النحو السابق لا يعنى الخلط بينها وبين دعوى الحسبة ، فلا يزال قبول دعوى الإلغاء منوطا بتوافر شرط المصلحة الشخصية لرافعها.**

ومن حيث أنه بتطبيق ما تقدم على الدعوى الماثلة ، يبين أن المدعى يبرر مصلحته فى إقامة دعواه بأنه بصفته محاميا له عديد من القضايا التى أقامها أمام محكمة القضاء الادارى ، وتنظرها دائرة (منازعات الأفراد والهيئات) التى كان يرأسها السيد المستشارفى تاريخ منحه الوسام المنوه عنه ، ويختصم فيها رئيس الجمهورية - بصفته -فإن له مصلحة فى الطعن على قرار منح الوسام ضمانا لنقاء قاضيه وتجرده وحيدته.

ومن حيث أنه فى حدود ما تقدم تبدو للمدعى مصلحة شخصية فى أن يقيم دعواه الماثلة ، مستهدفا منع ما قد يكون من شأنه التأثير على حيدة القاضى أو تجرده أو استقلاله ، وليطمئن وسائر المتقاضين إلى سير العدالة على النهج الذى أمر الله به واستقرت عليه كافة النظم والشرائع ، لتستقيم موازين القسط فى يد العدالة» (ص١٢٩-١٣٠).

٨- السند التشريعى لدعاوى الحسبة:

تضمنت لائحة المحاكم الشرعية والصادرة بالمرسوم بقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ ، وهى اللائحة المنظمة لسير العداة فى المحاكم الشرعية المعروفة

حينذاك والتى تتولى الفصل فى منازعات الأحوال الشخصية ، السند التشريعى لدعاوى الحسبة فى المادتين ٨٩ و ١١٠ من الفصل الثالث المعنون «فى سماع الدعوى» من الباب الثانى المخصص لقواعد المرافعات من الكتاب الرابع المعنون فى الاعلانات وقيد الدعاوى وتقديم المستندات والمرافعات والأدلة والأحكام وطرق الطعن فيها:

فالمادة ٨٩ نصت على : « لا تسمع الدعوى إلا على خصم شرعى حقيقى »

فى حين جرى نص المادة ١١٠ على أنه: «إذا حضر المدعى أو وكيله فى الميعاد المعين وسمعت الدعوى والجواب عنها ودفعها المدعى عليه بدفع يعتبر دعوى مستقلة ، ثم تخلف المدعى بعد ذلك ولم يرسل وكيلا عنه فى الميعاد المعين فللمدعى عليه الخيار إما أن يطلب اعتبار القضية كأن لم تكن وإما أن يطلب السير فى دعوى الدفع بالطريق الشرعى ويعتبر المدعى عليه مدعيا والمدعى مدعيا عليه.

وهذا إذا لم يكن الدفع من حقوق الله تعالى أما إذا كان من حقوق الله تعالى فيجب على المحكمة أن تسير فيه بالطريق الشرعى».

٩- إلغاء السند التشريعى لدعاوى الحسبة والاختلاف فى تفسير مدى هذا الإلغاء:

أتى القانون ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ ليلغى العديد من مواد لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ومن ضمنها المادتين ٨٩ و ١١٠ اللتين تمثلان السند التشريعى لدعاوى الحسبة ، وبذلك أضحت اللائحة خلوا من أى سند تشريعى لدعاوى الحسبة . وخضعت بذلك منازعات الأحوال الشخصية لقواعد قانون المرافعات فيما يتعلق بشروط قبول الدعوى ، طالما لم تعد هناك قواعد خاصة فيما تبقى من اللائحة أو القوانين المكملة لها تنظم هذا الموضوع ، وذلك تطبيقا لأحكام المادة الخامسة من القانون ٤٩٢ لسنة ٥٥ والتى نصت على:

«تتبع أحكام قانون المرافعات فى الاجراءات المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية والوقف التى كانت من اختصاص المحاكم الشرعية أو المجالس المالية عدا الأحوال التى وردت بشأنها قواعد خاصة فى لائحة ترتيب المحاكم الشرعية أو القوانين الأخرى المكملة لها».

واختلف الفقه والقضاء فى تحديد أثر هذا الإلغاء حيث ذهب جانب من الفقه وسايرته فى هذا محكمة النقض إلى استمرار العمل بدعاوى الحسبة فى نطاق منازعات الأحوال الشخصية ، باعتبارها المجال الخاضع تماما

للشريعة الإسلامية ،كما يجد سنده فى المادة ٢٨٠ من اللائحة التى تحيل القاضى إلى الراجح من المذهب الحنفى فى حالة خلو اللائحة والقوانين المكملة لها من نص يحكم الموضوع المثار، فطالما خلت اللائحة والقوانين المكملة لها من أى نص يلغى دعاوى الحسبة ، وطالما أن دعاوى الحسبة من الأمور التى تعد راجحة فى المذهب الحنفى فيتعين قبول دعاوى الحسبة تطبيقا لأحكام المادة ٢٨٠ من اللائحة.

وذهب رأى آخر إلى أن المشرع بذلك الإلغاء قد أفصح عن إرادته بخضوع منازعات الأحوال الشخصية لذات القواعد الواردة فى قانون المرافعات والتى تخضع لها باقى المنازعات المدنية ، وذلك بهدف توحيد القضاء الذى يخضع له كافة المواطنين.

ويستند هذا الرأى إلى أن المادة الأولى من القانون المذكور قد نصت على« تلغى المحاكم الشرعية والمحاكم الملية ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وتحال الدعاوى المنظورة أمامها لغاية ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٥ إلى المحاكم الوطنية لاستمرار النظر فيها وفقا لأحكام قانون المرافعات».

ويستفاد من هذا النص ليس فقط إلغاء المحاكم الطائفية وإنما أيضا اخضاع دعاوى الأحوال الشخصية لأحكام قانون المرافعات ، وحدد النص معيارا تاريخيا لبدء تطبيق أحكام هذه المادة على الدعاوى المنظورة والتى ينطبق عليها هذا المعيار ، أى حدد النص النطاق الزمنى لسريان أحكامه. وبذلك تخضع جميع دعاوى الأحوال الشخصية الجديدة المرفوعة من ١/١/ ١٩٥٦ لأحكام قانون المرافعات.

١٠- المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية لا تصلح سندا تشريعيا لدعاوى الحسبة:

نصت هذه المادة على:

« تصدر الأحكام طبقا للمدون فى هذه اللائحة ولأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة ما عدا الأحوال التى ينص فيها قانون المحاكم الشرعية على قواعد خاصة فيجب فيها أن تصدر الأحكام طبقا لتلك القواعد».

وهذه المادة لا تصلح سندا تشريعيا لدعاوى الحسبة وذلك للأسباب الآتية:

أ- لم يكن هذا هو قصد المشرع من هذه المادة ودليلنا على ذلك أنه قد أفرد المادة ٨٩ والمادة ١١٠ لأداء هذا الدور.

ب- موضع المادة ٢٨٠ حيث لم تأت فى الباب الثانى المخصص لقواعد

المرافعات- وهو الموضع الطبيعي والمنطقى الذى ينظم الصفة والمصلحة فى رفع الدعوى- وإنما جاءت فى الباب الرابع من الكتاب الرابع المخصص للأحكام.

ت- هذه المادة معيبة حيث تحيل القاضى إلى قواعد غير مقننة ومدونة .فقد استقرت غالبية النظم القانونية الحديثة على ضرورة تدوين القواعد القانونية حتى يسهل للقاضى الرجوع إليها كما يسهل مهمة الدفاع ويحيط المواطن علما بالتزاماته القانونية، ويسهل للمحكمة العليا مراقبة حسن تطبيق القانون.

ث- شبهة عدم دستورية هذه المادة لتعارضها مع مبدأ الفصل بين السلطتين التشريعية والقضائية ،حيث أحال النص للقاضى مهمة البحث عن الراجح من المذهب الحنفى ،فإذا كانت القاعدة التى استقاها القاضى واضحة الرجحان فلا تثريب على عمله وتنتفى بذلك شبهة عدم الدستورية المؤسسة على هذا الوجه.

أما إذا كان رجحان القاعدة أمرا مبهما فإن ترجيح القاضى فى هذه الحالة إنما يكون عملا متجاوزا نطاق البحث عن القاعدة ليدخل فى نطاق تشريعها وهو ما يخرج بالضرورة عن اختصاص السلطة القضائية ليدخل حصرا فى اختصاص السلطة التشريعية .وبصدد هذا الوجه من عدم الدستورية يقول المستشار محمود عقبة:

«إن القاضى عندما يحكم بأرجح الأقوال فإنه غير معروف ما هى أرجح الأقوال فى مذهب أبى حنيفة؟ هم يقولون أن الأرجح فى هذا المذهب هو ما اتفق عليه الصاحبان أبى يوسف قاضى القضاة فى عهد الخليفة الرشيد وهوواضع كتاب الأموال فقط عن فقه أبى حنيفة . أما الصاحب الثانى محمد فقد جمع كافة ما يتعلق بالمذهب الحنفى، وبالتالى فإنه غير معروف ما هو الراجح فى هذا المذهب (أخبار الأدب- العدد ٣١- فى ١٤/ ١/٩٥- ص١٠).

وهناك وجه آخر لعدم الدستورية حيث قصرت هذه المادة الشريعة الإسلامية على مذهب واحد وهو قصر غير مبرر، وهذا القصر يرجع تاريخيا لفترة الاحتلال العثمانى لمصر حيث كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى للدولة العثمانية.

ج- عدم دستوريتها استنادا إلى عدم نشر القواعد الراجحة من هذا المذهب فى الجريدة الرسمية، فالمادة ١٨٨ من الدستور تستلزم نشر القوانين

فى الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم اصدارها .فالنشر هنا يعد ركنا جوهريا تخلفه يعدم القاعدة القانونية محل البحث . وبذلك تفتقد القواعد الراجحة من المذهب الحنفى خاصية القواعد القانونية.

١٢- المادة الثانية من الدستور لا تصلح بمفردها كسند تشريعى لدعاوى الحسبة:

جعلت المادة الثانية من الدستور- بعد تعديلها أثناء حكم السادات- من مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع ،ومع هذا لا تصلح هذه المادة بمفردها كسند تشريعى لدعاوى الحسبة، وذلك يرجع إلى أن هذه المادة غير نافذة بذاتها ، فلا يجوز للمحاكم أن تتولى تطبيقها مباشرة، وإنما الأمر فى حاجة لتدخل المشرع لتقنين تلك المبادئ فى قواعد قانونية . وهذا التحديد لنطاق المادة الثانية من الدستور ليس اجتهادا من قبلنا نحن إنما هو ما قررته محكمتنا الدستورية العليا ،حيث ذهبت إلى أن:

«نص المادة الثانية من الدستور غير نافذ بذاته ويتضمن فى حقيقته خطابا موجها إلى المشرع لحثه على إعادة النظر فى التشريعات القائمة وفقا لمبادئ الشريعة الإسلامية التى يجب أن تصدر التشريعات الجديدة متوافقة معها. فالخطاب فى هذا النص الدستورى موجه إلى المشرع لا إلى الكافة ولا إلى القضاء وبهذه المثابة فإن مبادئ الشريعة الإسلامية لا يكون لها قوة إلزام القواعد القانونية إلا إذا تدخل المشرع وقننها أما قبل ذلك فإنها لا تعدوأن تكون مصدراً موضوعيا للتشريع».

وأضافت المحكمة الدستورية أنه: لو أراد المشرع الدستورى جعل مبادئ الشريعة الإسلامية من بين القواعد المدرجة فى الدستور على وجه التحديد أو قصد أن يجرى إعمال تلك المبادئ بواسطة المحاكم التى تتولى تطبيق التشريعات دون ما حاجة إلى افرادها لنصوص تشريعية محددة مستوفاة للاجراءات التى عينها الدستور لما أعوزه النص على ذلك صراحة : (حكم المحكمة الدستورية العليا طعن رقم ٢٠/ ١ ق جلسة ١٩٨٥/٥/٤).

١٣- دعاوى الحسبة تتعارض مع المادة ٤٠ من الدستور التى كفلت مبدأ المساواة بين المواطنين:

أرسى الدستور المصرى الصادر عام ١٩٧١ فى المادة ٤٠ منه مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وحظر كافة أشكال التمييز بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس ،حيث نصت على أن:

« المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة ».

وحيث أن قوام فكرة دعاوى الحسبة هو منح المواطن المسلم الحق فى رفع دعاوى الحسبة وسلب المواطن غير المسلم هذا الحق فإنها بذلك تقيم تمييزا بين المواطنين قائما على تفرقة دينية..كما تقيم تمييزا آخر بسبب الجنس،عندما تمنح الذكر المسلم حقوقا أوسع مدى من تلك التى تمنحها للمرأة المسلمة . وبذلك تتعارض دعاوى الحسبة مع مبدأ المساواة الدستورى.

ومن المستقر قضائيا أن مبدأ المساواة لا يسرى إلا على من يشغلون مركزا قانونيا واحدا ،وفى حالتنا توجد وحدة فى المركز القانونى بين المسلمين وغير المسلمين فى بعض منازعات الأحوال الشخصية ،حيث تخضع منازعات غير المسلمين الشخصية للشريعة الإسلامية فى أحوال معينة ، وفى ذلك تقول محكمة النقض:

« مؤدى المادتين السادسة والسابعة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ بإلغاء المحاكم الشرعية والملية أن ضابط الإسناد فى تحديد القانون الواجب التطبيق فى مسائل الأحوال الشخصية للمصريين هو الديانة ، بحيث تطبق الشريعة الإسلامية على كل المسلمين وغير المسلمين المختلفين فى الملة أو الطائفة ،، وتطبق الشريعة الطائفية على غير المسلمين المتحدى الملة والطائفة، (نقض الطعن رقم ٢٩ لسنة ٤٧ ق جلسة ٧٩/٣/٢٨ س ٣٠ مج فنى مدنى- ص ٩٦٨) ،كما تشترك المرأة المسلمة مع المواطن المسلم فى ذات المركز القانونى فيما يتعلق بمنازعات الأحوال الشخصية.

١٤- فكرة النظام العام كما يعرفها القانون الوضعى المصرى لا تتسع لدعاوى الحسبة:

تقوم فكرة النظام العام على مذهب علمانى عام يطبق على الجماعة بأسرها ، رغم اختلافهم فى معتقداتهم الدينية . وتطبيقا لذلك لا يمكن أن نعتبر تعدد الزوجات جزءا من النظام العام يخضع له المواطنون المصريون غير المسلمين ،رغم كون الإسلام دين غالبية السكان والدين الرسمى للدولة،ورغم أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع . وهذا الفهم مستمد من أحكام محكمة النقض المصرية حيث ذهبت إلى:

«وحيث أنه وإن خلا التقنين المدنى والقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ من

تحديد المقصود بالنظام العام ، إلا أن المتفق عليه أنه يشمل القواعد التى ترمى إلى تحقيق المصلحة العامة للبلاد ، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ،والتى تتعلق بالوضع الطبيعى المادى والمعنوى لمجتمع منظم، وتعلو فيه مصالح الإفراد ، وتقوم فكرته على أساس مذهب علمانى بحت يطبق مذهبا عاما تدين به الجماعة بأسرها ، ولا يجب ربطه البتة بأحد أحكام الشرائع الدينية ،وإن كان هذا لا ينفى قيامه أحيانا على سند مما يمت إلى العقية الدينية بسبب ،متى أصبحت هذه العقيدة وثيقة الصلة بالنظام القانونى والاجتماعى المستقر فى ضمير الجماعة بحيث يتأذى الشعور العام عندَ عدم الاعتداد به ،مما مفاده وجوب أن تنصرف هذه القواعد إلى المواطنين جميعا من مسلمين وغير مسلمين بصرف النظر عن ديانتهم ،فلا يمكن تبعيض فكرة النظام العام وجعل بعض قواعده مقصورة على المسيحيين وينفرد المسلمون ببعضها الآخر، إذ لا يتصور أن يكون معيار النظام العام شخصيا أو طائفيا، وإنما يتسم تقديره بالموضوعية متفقا وما تدين به الجماعة فى الأغلب الأعم من أفرادها (انظر فى ذلك الحكم فى الطعنين رقمى ١٦ ، ٢٦ لسنة ٤٨ ق والصادر فى ١٧ يناير ١٩٧٩ -أحكام نقض- س ٣٠- العدد الأول -ص٢٨٨ وما بعدها).

أى أن معيار النظام العام لا ينبنى على أسس شخصية أو طائفية ، ولا يرتبط بأحكام أحد الشرائع طالما لم تتضمن تلك الأحكام فى النظام القانونى .فالقول بأن دعاوى الحسبة تستمد سندها من فكرة النظام العام ،إنما يعنى الأخذ بمعيار يؤدى إلى تبعيض وتجزئة فكرة النظام العام حيث يقيم تفرقة على أساس دينى بين المواطنين بأن يمنح المسلمين منهم حق رفع دعاوى الحسبة ويحرم غير المسلمين من هذا الحق .كما يقيم تمايزا بين الذكور والإناث داخل أبناء الدين الواحد ،وهو الأمر الذى يهدم فكرة النظام العام من أساسها.

النتائج:

١- ضرورة تقنين ما يراه المشرع من أحكام الشريعة الإسلامية فى قانون، وإلغاء الإحالة الواردة فى المادة ٢٨٠ من اللائحة للراجح من المذهب الحنفى.

٢- إضافة نص جديد إلى اللائحة يقضى صراحة بسريان قانون المرافعات على منازعات الأحوال الشخصية وذلك فيما يتعلق بتحديد شرطى الصفة والمصلحة فى رافع الدعوى وهو ما يعنى إلغاء دعاوى الحسبةمن قانون الأحوال الشخصية.

رأى

قضية صلاح محسن :
الاعتراف ليس سيد الأدلة

حلمى سالم

شهدت الشهور الأخيرة طائفة من الوقائع الثقافية الفكرية ، التى تتفق جميعها على كبح حرية الرأى وقمع المبدعين ، كما تتفق جميعها فى الانطلاق- قانونا- من دعوى الحسبة، وفى رفع راية الدين قناعاً لإخفاء الهدف الأصلى : كبت الفكر.

لن نتعرض لكل هذه الطائفة من الوقائع المؤلمة ،لأنّ ذلك ليس غرضنا فى هذا المقام. يكفى أن نشير سريعاً إلى: قضية الحسبة التى رفعها الشيخ يوسف البدرى على الشيخ عبد الصبور شاهين بسبب كتابه « أبى آدم » ، وقضية الكاتبتين الكويتيتين ليلى العثمان وعالية شعيب ،وقضية الشاعر الأردنى موسى حوامدة ،وقضية مارسيل خليفة فى لبنان ،وقضية مؤلف كتاب« قصة الخلق » من العرش إلى الفرش(الذى وافق عليه الأزهر منذ عامين لموافقته الشريعة ، ثم عاد مؤخراً وصادره لعدم موافقته العلم) ، وقضية الروائى السورى صبحى سلطان الذى صادر الدروز روايته، وقضية رواية « صنعاء مدينة مفتوحة » للكاتب اليمنى محمد عبد الولى الذى رحل قبل عشرين عاما ونشرت روايته قبل وفاته بخمس سنوات ، وقضية « وليمة لأعشاب البحر » ،وغير ذلك.

القضية التى أود التوقف عندها، فى هذه السطور القليلة ، هى قضية صلاح الدين محسن، الكاتب الذى احتجزته النيابة منذ أربعة شهور ، ثم

أصدرت المحكمة منذ أسابيع قليلة حكمها ضده بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ، وكانت التهمة أنه- فى بعض كتبه -يزرى بالأديان وينكرها ويسئ إليها.

وصلاح الدين محسن- لمن لم يتابع حكايته- مهندس يعمل فى توزيع البويات ، وقد أصدر أكثر من كتاب على نفقته الخاصة ، بين رواية ومسرحية وفكر منها: مسامرات السماء، وارتعاشات تنويرية . وقد يرى كثيرون - وأنا منهم- أن كتبه هزيلة القيمة الفنية والفكرية . وقد حدث أن مرّ محسن على « أدب ونقد » ، منذ بضعة سنوات ، عارضا العديد من كتاباته ، لكن هيئة تحرير « أدب ونقد » رفضت أن تنشر شيئا من إنتاجه ، ليس بسبب فكرى ، بل بسبب شدة ركاكة ذلك الإنتاج وشدة ارتباكه واضطرابه . لكن ذلك كله أمر مختلف عن ضرورة الدفاع عن حرية الأفكار والآراء ، مهما كان رأينا فى هذه الأفكار والآراء.

ومن هنا ،فإن لنا على قضية صلاح الدين محسن ، مجموعة من الملحوظات الملحة:

(١) ربما كانت كتابات محسن ضئيلة القيمة أو شديدة التشوش ، لكن الذى لا جدال فيه هو حقه فى حرية التعبير والرأى، وذلك انطلاقا من القاعدة التى تؤكد أن الحجب والمنع لا يعالجان انحرافاً ، وإنما يعالج الانحراف بمقارعته الفكرية ودحضه بالحجة والبرهان.

(٢) كان من سوء حظ الكاتب أن طبيعته الشخصية دفعته- بقدر واضح من السذاجة -إلى عدم إنكار التهم التى وجهتها النيابة إليه ، ولم تكن لديه حصافة الالتفاف ولا حنكة التمويه ، مثلما يفعل أهل الخبرة حينما يقعون تحت طائلة القانون.

كما كان من سوء حظه أنه كاتب مغمور ليست له شهره نظرائه من الأدباء أو المفكرين الذين واجهوا نفس الهجمة المظلمة تحت ستار الدين والأخلاق الحميدة.

ويبدو أن هذين العاملين- عدم حصافته وعدم شهرته- كانا وراء ضعف اهتمام الحياة الثقافية المصرية والعربية بقضيته ، مقارنة بما نالته بعض القضايا الأخرى من عناية المثقفين ، وذلك أمر مؤسف، بحق، لأن المفترض أن

يكون الأصل فى هذه القضايا هو المبدأ لا الشخص ، بصرف النظر عن شهرة الشخص أو انغماره .كما أن المفترض أن يكون الدفاع عن« حق » المرء فى إبداء رأيه ،هو جوهر موقف المثقفين ، وليس الدفاع عن« الرأى » نفسه ، مصيبا كان أو مخطئا . وكذلك الدفاع عن حرية المبدع ، بقطع النظر عن المستوى الفنى أو الفكرى لذلك الإبداع.

وعلى ذلك ، فلم يكن من اللائق أن يكون دعم المثقفين لصلاح محسن ضعيفا ، تحت أى دعوى من ركاكة أدائه، أو تشوش فكره ، أو سذاجته فى الإقرار بالتهم ، أو عدم ذيوع صيته كمفكر أو أديب.

(٣) من مفارقات هذه القضية ، أن تصل قلة اعتناء المثقفين بصاحبها إلى درجة أن يهاجمه بعض المثقفين والكتّاب -من أهل حرية الرأى وحرية الإبداع- هجوماً مدينا ، جعل المتابع يرى أن حكم المحكمة على الكاتب (بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ) جاء أكثر تعقلا من رأى بعض المثقفين- المستنيرين -وأكثر تعاطفاً وإدراكا ورحمة.

بل إن اتحاد الكتاب المصرى(الذى هو نقابة مهنية لاسياسية ، مهمتها صيانة حقوق أعضائها ، والدفاع عن حرية رأيهم وإبداعهم) قد سلك سلوكين غريبين يتناقضان مع دوره الأصيل:

فمن ناحية ، انسحب محامى الاتحاد من متابعة قضية صلاح محسن(عضو الاتحاد فى مرحلة دقيقة من مراحل التحقيق.

ومن ناحية أخرى ، أعلن رئيس لجنة الحريات (!!) بالاتحاد عن اندهاشه لقبول محسن عضوا بالاتحاد ، وأشار إلى أنه سيحقق فى ملابسات قبوله.

وبدلاً من أن يسعى الاتحاد إلى حماية عضوه- مهما كان فكر العضو- حماية نقابية مهنية تقتضيها شرعية وجودها ، إذا به يتخلى عن عضوه ويتركه فى عراء التحقيق والقضاء ، معتمداً الشرط السياسى فى عمله، قاصداً إلى منافقة التيارات الدينية المتطرفة وطلب ودّها المظلم.

وبدلاً من أن يتخذ رئيس لجنة الحريات بالاتحاد (لاحظ اسم اللجنة) موقفا يتسق مع موقعه وواجب لجنته ، إذا به يساهم فى حملة أصحاب الحسبة بالتشكيك فى مشروعية انضمام الكاتب إلى الاتحاد. وهو التشكيك الذى يتجاوز الشرط القانونى إلى المعيار الفكرى والسياسى فى دخول الاتحاد .

وكلنا نعلم أن قانون الاتحاد يشترط لقبول العضوية أن يكون للمتقدم كتابان مطبوعان (ولصلاح محسن- حوالى ستة كتب) . وكلنا نعلم- كذلك- أن مئات من أعضاء الاتحاد الحاليين هم من الموظفين والسعاة والمذيعين والاداريين الذين دخلوا الاتحاد- أيام ثروت أباظة- بدون أن يكون لهم كتاب واحد.

فلماذا الكيل بمكيالين، والاستئساد على محسن وحده؟.

(٤) أما السؤال الخطير، المسكوت عنه ، في القضية برمتها، والذى لم يطرحه أحد بعد، فهو :« وماذا فى أن يكون شخص من الأشخاص- مواطن أو مبدع أو مفكر- غير مؤمن ، أو غير ذى دين ، طالما أنه كمواطن يؤدي واجباته القانونية ويتمتع بحقوقه القانونية؟ ».

صحيح أن الدستور ينص على أن الدولة« دولة إسلامية »، ولكن هل هذا النص يعنى أن المسيحيين (وهم سدُس الوطن) غير دستوريين؟.

وما معنى أن ينص الدستور على « *حرية الرأى والتعبير الاعتقاد* » إلا إذا كان ضمن هذا المعنى أن يصان اختيار شخص من الأشخاص فى أن يكون غير ذى دين؟.

هل« حرية الاعتقاد » هذه مقصورة على حرية الاعتقاد داخل الأديان السماوية الكتابية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) فقط، أم أنها تشمل حرية المرء فى أن يكون اعتقاده خارج هذه الأديان الثلاثة، أو خارج الأديان عامة؟.

هذا سؤال يحتاج إلى إجابة سريعة وواضحة وقاطعة. وإذا كان لقضية صلاح محسن من فضل- على ما فيها من آلام ومرارات- فهو فضل طرح هذا السوال المسكوت عنه من زمن طويل:

ما هو المقصود ، تحديداً، بحرية الاعتقاد؟ هل ينصرف معناه إلى المسألة الدينية ، أم أنه محصور بالاعتقاد فى الجوانب الفكرية؟

إذا كان المعنى محصوراً في الجوانب الفكرية فقط، لا الجوانب الدينية ، فمعنى ذلك أن ذلك النص الدستورى يجعل المسيحيين المصريين واليهود المصريين أشخاصا غير دستوريين . ويغدو بذلك نصاً طائفيا وتمييزيا واستبداديا ، بينما هو فى الأصل يتغيّا نفى الطائفية ونفى الاستبداد والقمع.

وإذا كان القصد منصرفا إلى شتى أنواع حرية الاعتقاد ، بما فيها الاعتقادات الدينية ،فإن محاكمة أى كاتب على معتقداته الفكرية أو الدينية هى عمل غير دستورى . وكذلك يغدو حكم القضاء على صلاح محسن حكماً غير دستورى.

وعليه ،فإذا كانت مخالفة الدستور تقتضى معاقبة مرتكبها، فإننا ندعو إلى محاسبة كل من اتهم أو حاكم أو حبس مواطناً بسبب رأيه أو اعتقاده ، بوصفهم مخالفين لنص صريح فى الدستور ، هو النص الذى يكفل حرية الرأى وحرية الاعتقاد ، ويؤثم التمييز بين الأفراد بسبب اللون أو الدين أو الجنس.

(٥) أما الحكم الذى أصدرته المحكمة -بعد بضعة شهور من التحقيقات -فهو يستحق بعض التقدير وبعض التحية:

فعلى الرغم من التناقض مع الدستور الذى ينطوى عليه مجرد تقديم أو مثول صلاح محسن- أو غيره- للمحاكمة ، كما سبق القول، وعلى الرغم من من أن منطوق الحكم، ، مهما كان مخففا أو منعدم التنفيذ ، يعنى فى جوهره إدانة الكاتب ومحاسبته على آراء لا يذيعها بالعنف بين الناس بما يهدد النظام العام والسلام الاجتماعى، نقول: على الرغم من كل ذلك ، فليس خافيا ما فى منطوق الحكم من اعتماد أدنى حدود العقوبة المنصوص عليها فى القانون . وليس خافيا ما فى منطوق الحكم من إيمان ضمنى بأن الحجب أو الحبس لا يعدم الفكر المراد دحضه ، بل إنه يروّج ذلك الفكر ويحوّل صاحبه إلى شهيد مغدور أو بطل مضطهد.

ولعل هذه المعانى غير الخافية فى منطوق الحكم هى ما دفعت النيابة إلى الطعن فيه. ويبدو أن النيابة (التى أوكل لها المشرّع الولاية على دعاوى الحسبة، بعد التعديل الذى دخل على قانون الحسبة عقب عاصفة نصر حامد أبو زيد ، منذ أربع سنوات) لا تستريح إلا إذا شنق كل صاحب رأى مختلف عن النغمة الرسمية ، ولا ترى أن السلام الاجتماعى سيعم إلا إذا صار كل كتاب ومفكرى هذا الوطن من نزلاء أبى زعبل .

دراسة

الفكر الدينى: آفاق جديدة (٢)
نقد العقل الإسلامى: متى.. وكيف؟!

أيمن عبد الرسول

لم يعد مستغربا على الباحث فى مجال التراث والدراسات الإسلامية اسم (محمد أركون) المفكر الجزائرى الأصل، المسلم المقيم فى باريس، وأستاذ الاسلاميات بجامعة السوربون ،خاصة بعد أن تم اكتشافه عربيا على يد مترجم وناقد عربى معروف هو« هاشم صالح» المسئول عن ترجمة وشرح أركون للقارئ العربى ،فأركون يكتب بالفرنسية، لغة تدريسه ومعايشته ، وخطابه الفكرى ينطلق من الهم الإسلامى ، مستهدفا ثلاثة أبعاد لابد أن نتعرض لها بالتفصيل.

أما بالنسبة للقارئ العربى ، الذى يهتم بالفكر الإسلامى ، فلا يجد خطاب أركون محققا لأهدافه فى تشكيل مرجعية أصولية دينية تحظى باهتمامه ، هذا فضلا عن الغلاء النسبى الذى تباع به كتب أركون فى المكتبة العربية وهو ما يجعله بعيداً عن القارئ العادى لسببين ، أولا لعلمية خطابه المنتج حول الفكر الإسلامى ،وهذا سبب إيديولوجى ، والسبب الاقتصادى الذى أشرنا إليه، يزهد فيه حتى المثقفين المعنيين بنفس الهم.

وبصفة خاصة كان أول لقاء مع الخطاب الأركونى من خلال كتابه « من فيصل التفرقة إلى فصل المقال .. أين هو الفكر الإسلامى المعاصر ؟ »(١) فكان فاتحة العلاقة العلمية بينى وبين كتابات هذا المفكر الذى ما أن تتورط فى فهمه ،حتى تشعر بمدى العجز والتقصير فى متابعة معطيات العلوم الإنسانية المعاصرة، وتطبيقاتها على

الفكر الإسلامي من جهة ، وكذا تبدأ في محاولة الإجابة على هذا السؤال المشكل: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ؟! وإن كنا جميعا نسعى لتشكيل هذا الخطاب المعاصر (أقصد المشتغلين بالبحث عن منهج علمي لدراسة الإسلاميات) والتقاطع مع الخطاب الأصولي المنتج حول الإسلام والذي يبدو أنه استنفذ كل طاقاته الخلاقة.

ومن خلال المقالات القادمة سوف نتوقف وقفة نقدية وتحليلية من معطيات هذا الخطاب الذي نحسبه مغامراً في ساحة الفكر الإسلامي ،فالخطاب الأركوني ينطلق كما أشرنا من الفكر الإسلامي ويستهدف في المقام الأول خلق وعي نقدي متجاوز وعلمي للإسلام ،وأهدافه التأسيسية على ما نرى تتجلى في النقاط التالية:

أولا: نقد الخطاب الإسلامي والخطاب الاستشراقي معاً ، وهذا النقد يتضمن نقد (مشروع التنوير العربي) بوصفه اعتمد أساسا على العقلانية الوضعية الأوربية التي يوجه لها أركون نقداً منهجياً قاسيا من منظور المناهج العلمية المعاصرة ، وإن كان مفهوما نقده للخطاب الإسلامي الإيديولوجي بالأساس ، فالخطاب الاستشراقي لا يقل تهافتاً عن الإسلامي بوصفه يعتمد المنهج الوصفي المحايد ، الذي لا يغوص إلى عمق المشكلات بقدر ما يهمه الاهتمام بجمع المعلومات والنقد التاريخي للنصوص وهو بذلك خطاب اسكولاستيكي (٢) لا يقل في خطره عن الفهم السائد للإسلام في الخطاب الأصولي.

ثانيا: قراءة التراث قراءة نقدية تهدف إلى إعادة موضعته في التاريخ ، بعد أن أدت سيادة الأرثوذكسية (٣) إلى دمج التاريخي والاجتماعي في (المقدس) وتحويله إلى (وحي) و،وهذه القراءة تفكيكيـــة للكشف عن تعددية هذا التـراث الذي حاولت الارثوذكسية مصادرته لصالحها. هذه الارثوذكسية تتجلى في ثلاثة تراثات حية ، ما زالت تمارس فعلها الآني في التاريخ من خلال التراث السني والشيعي والخارجي (نسبة إلى الخوارج) لكل منهم إيديولوجيته الخاصة ومفاهيمه العقدية التي تم دمجها تاريخيا بوصفها (مقدسا).

ثالثا: بعد نقد الخطابات المعاصرة اسلامية واستشراقية وتراثية يصل إلى تلك المحاولة الجسورة لقراءة الوحي/ القرآن قراءة تزامنية مضادة للقراءة الاسقاطية

التى استمرت قروناً طويلة فى الفكر الإسلامى و المستمرة حتى الآن ..والمقصود بالقراءة التزامنية استعادة لحظات التلقى الأصلية، حيث كان العقل يمارس آليته وعمله بطريقة معينة ومحددة، دون إسقاط مفهوم العقل، أو العقلانى المتأثر بالفلسفة الاغريقية.. إنها قراءة العجيب المدهش كما كان يتلقاه العربى المعاصر لتكون النص (٤) وهذه القراءة تمثل نقيضا للقراءة الاسقاطية من جهة، وكذا نقيضا للقراءة التجزيئية ، وذلك من حيث إنها- القراءة التزامنية -قراءة «كلية» تنظر إلى القرآن فى كليته ،وتحتاج إلى إزاحة واختراق التراكمات الدلالية والسيميائية التى انتجتها القراءات التراثية وكذا القراءات المعاصرة ذات الطابع المدرسى!.

وبعد، هذه هى الملامح العامة للخطاب الأركونى ،أما الآن فنحن بصدد عرض لأحد أهم دراساته والتى يقترح فيها تجاوز مفهوم الاجتهاد الكلاسيكى من أجل الانتقال منه إلى نقد العقل الإسلامى ،هذا النقد الذى من شأنه أن يفزع حماة الارثوذكسية الاسلامية من جهة وكذا تجديد الفكر العربى الاسلامى لكى يصبح أكثر قدرة على ممارسة دوره النشط فى مواجهة قضايا مجتمعاتنا الحالية.

ويشير هذا الكتاب «من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامى» (٥) عدداً كبيراً من القضايا الهاجسة فى ذهن الفكر الاسلامى المعاصر ، ليس أهمها شروط تجاوز الاجتهاد والذى احتكره الفقهاء (مؤسسو المذاهب الفقهية الكبرى) باعتباره امتيازاً للائمة المجتهدين ، بشروطه الكلاسيكية المعروفة (٦) ، أو عرض كم وكيف العقبات التى تواجه الباحث اليوم فى تجديد الفكر الإسلامى ، ولكن أهمها من وجهة نظرنا الإشارة إلى قضايا ما زالت فى حاجة إلى نقاش ، أو فتح أفق آخر لمناقشة « اللامفكرفيه فى الفكر الدينى» ، مثل قضايا النسخ وأسباب النزول ومحاولة جادة للكشف عن البنى التأسيسية والأطر الاجتماعية والمعرفية لكتابة التراث من خلال البحث عن معنى أو لتفسير كلمة فى اية وهى كلمة «الكلالة».

ومن خلال هذه الدراسة يشير أركون إلى أن ما ينبغى أن يحظى باهتمامنا هنا وينبغى التركيز عليه هو ذلك المزعم المفرط والمغرور المتبجح الذى يدعيه الفقهاء بأنهم قادرون على التماس المباشر بكلام الله ، وقادرون على الفهم المطابق لمقاصده

العليا ثم توضيحها وبلورتها فى القانون الدينى ، ومن ثم تثبيت القانون الإلهى أو المؤله (الذى تم خلع أردية التقديس عليه مع أنه بشرى) الخاص بالاحكام الشرعية التى ينبغى أن تتحكم أبديا بكل تصرف أو كل تفكير يقوم به المؤمن الخاضع لامتحان الطاعة لله . الكتاب ص١٥.

ذلك لأن بنية أصول الدين والفقه الإسلاميين تقوم على افتراض عدم وقوع المجتهد في الخطأ ،وإلا لما سمى مجتهداً ،وهكذا فالباحث المسلم عليه أن يواجه كل هذا الكم من الارث العقائدى والتأويلى إذا أراد الانخراط فى مشروع زحزحة شروط الاجتهاد النظرية وحدوده من المجال اللاهوتي- القانونى الذى حصر فيه من قبل الفقهاء (فالمعلوم أن الاجتهاد مقصور على أصول الفقه بوصفه أحد مباحث الاستدلال الاستنباطى أو التمرينات الذهنية لقياس الغائب على الشاهد أو العكس) إلى مجال التساؤلات الجذرية وغير المعروفة حتى الآن من قبل التراث الإسلامى : أى إلى مجال نقد العقل الإسلامى.

هذا المشروع الذى تناوله أركون فى مقالات عديدة، ليس أهمها كتابه «تاريخية الفكر العربى الإسلامى» وعنوانه بالفرنسية(نحو نقد العقل الإسلامى) وكانت ترجمته بهذا العنوان احتراما لمشاعر القارئ المسلم الذى لم يألف بعد هذه العناوين الصادمة لمشاعره العقائدية ولهذا- من وجهة نظر أركون -ينبغى على المفكر المسلم الحديث أن يحتاط لنفسه جيداً أو يجهز نفسه علمياً بشكل لا غبار عليه فيطلع على كل ما يخص معرفة النصوص القديمة والشروط التقنية للاجتهاد الكلاسيكى ، ينبغى عليه أن يمتلك ذلك أولا ، فلا يعتبره تحصيل حاصل ، أو شيئا تراثيا لا قيمة له.

ذلك أن الانتقال من مرحلة الاجتهاد الكلاسيكى إلى مرحلة نقد العقل الإسلامى ، ينبغى أن يصمم ويصور على أساس أنه امتداد للاجتهاد الكلاسيكى وإنضاج له.

هكذا ينبغى أن يفهم من قبل كل المسلمين ، وبالدرجة الأولى من قبل العلماء أنفسهم(٧).

والاشارة هنا مهمة إلى ضرورة هضم التراث بشكل جيد وعلمى من أجل تأسيس معرفة جديدة ، فلابد قبل إعلان القطيعة المعرفية مع التراث ، دراسته بشكل جيد من

أجل إنتاج ثورة معرفية تقوم على وعى نقاط الضعف والقوة فى هذا التراث ، وكذا يدعونا أركون إلى احترام القارئ المسلم، والحرص عى عدم جرح الوعى الإيمانى الخاص به أو معاملته بفجاجة.

هذه الاحتياطات المنهجية التى يراها أركون ويتفق معه فيها كاتب هذه السطور - ضرورية عندما نعالج فكرة نقد العقل الإسلامى ، من خلال قراءة أركون للآيتين رقم(١٢) و(١٧٦) من سورة النساء ، ثم الآيات (١٨٠) و(١٨٢) ،(٢٤٠) من سورة البقرة.

١- القراءات والرهانات:

يشير فى البداية -أركون- إلى صعوبة طرح مثل هذه القضايا فى جو ملغم بالنضال الاسلاموى (٨) واتساع مساحة المستحيل التفكير فيه فى المجتمعات الإسلامية الحالية، بحيث تولد هذه الابحاث الحداثية الكثير من سوء التفاهم ،وهو يريد بهذه الملاحظة لفت انتباهنا إلى مسألة التأخر التى يعانى منها الفكر الاسلامى بسبب ضغط الرقابة الايديولوجية الصارمة والمعممة على كل الفئات الاجتماعية ومستويات الثقافة فى البلدان العربية والإسلامية ،وهو لا يعنى فقط رقابة الحركات النضالية المذكورة ، ولكن يعنى كذلك رقابة (مسيرّى شئون التقديس)(٩) التى تضغط بقوة أكبر على حرية البحث والتعبير .ومن ناحية أخرى هناك الرقابة الذاتية التى نمارسها نحن كباحثين فى مجال دراستنا وخضوعها لظروف النشر وارتفاع أو انخفاض حدة الأسلمة فى المجتمع ،هذه الاكراهات القسرية تجعلنا فى حالة تقدمية- تراجعية فى مناقشة قضايا الفكر الإسلامى ، خوفاً من اخراجنا من دوائر الاسلام.

ومن خلال هذا المناخ المتردى للفكر الإسلامى ينتزع الاستشراق مكانته العلمية بوصفه الأكثر وعيا وانفتاحا على فهم ووعى قضايانا، لأنه الأكثر بعداً عن الاكراهات الرمزية والحقيقية التى تمارسها المجتمعات الاسلامية على مثقفيها.

ويعكس ذلك حالة التفاوت الفاضح بين الباحثين المسلمين والمستشرقين ،والذى يجعل الاستشراق مستمراً حتى الآن فى الافتخار بأنه وحده الذى يؤدى إلى تقدم الدراسات الإسلامية كما كان عليه الحال أيام جولد تسيهر وجوزيف شاخت ولوى ماسينيون.

وجاءت دراسة الباحث الأمريكي دافيد س. بورز بعنوان دراسات في القرآن والحديث، تشكل القانون الإسلامي الخاص بالإرث، جامعة برنستون الأمريكية ١٩٨٦ في وقتها لكي تقدم لأركون المناسبة الملائمة لبيان الفرق بين منهجه في دراسة التراث ومناهج المستشرقين، فالعلم الاستشراقي بعد أن يقوم بعمله يخلف لنا حقلا من الانقاض، أما الفكر النقدي فهو بناء ومتضامن فعليا مع كافة أنواع الصعوبات والحالات الجديدة التي ولدّها وأثارها البحث العلمي.

ومن خلال قراءة الجزء الثاني من الآية الثانية عشرة من صورة النساء والتي يجد فيها أركون عدداً من المشاكل الأكثر صحة وملائمة لتوضيح ضرورة الانتقال من مرحلة الاجتهاد إلى مرحلة نقد العقل الإسلامي والآية نصها ..« وإن كان رجل يورث كلالة أو إمرأة، وله أخ أو أخت، فلكل منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك، فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوحي بها أو دين غير مضار، وصية من الله والله عليم حليم».

والملاحظة الأولى أن القراءة المعتمدة في المصحف أو (المدونة النصية الرسمية المغلقة) تبنى الفعلين (يورث ويوصى) للمجهول وعندئذ تصبح كلمة امرأة مفعولا به مباشرا، تماما مثل كلمة كلالة، ويرى أركون أن القراءة بالمبنى للمجهول وهي التي فرضت على القرآن من قبل الفقهاء والمفسرين، قراءة تستعصى على الذوق العربي السليم، بالاضافة إلى أنها صعبة جدا وملتوية، وقد احتاجت إلى الكثير من الشروحات والتخريجات القواعية واللغوية، واضطرت الفقهاء والمفسرين إلى اللجوء لحاجات وتأويلات معقدة وملتبسة (ويحيل القارئ هنا إلى تفسير الطبرى للإطلاع على شئ من ذلك)(١٠).

وليس من الضروري هنا أن نذكر كل التفسيرات المفضلة والتي يستثمرها الطبرى عن كلمة (كلالة) ومكانتها النحوية في الآية ولكن يلفت النظر هذه المعطيات التي يشير إليها أركون :فالطبرى يخصص مكانة ما للقراءة التي يبجلها البعض والتي اعتمدت رسميا ويفضلها العدد الأكبر من قراء أهل الاسلام بتعبير الطبرى ،والواضح هنا أن الطريقة التي فرضت بها حجية الاجماع، قائمة على فكرة الاجماع

العددى للأغلبية فقط، وكذا يشير إلى إهمال هذه الفكرة من جانبنا نحن الباحثين فى الإسلام ، وتتجلى هذه الانتهازية التفسيرية والاستخدام الذرائعى البرجماتى للنص عند تعيين الفقهاء للآيات الناسخة والمنسوخة ،فتصبح الآيات المنسوخة هنا تلك الآيات التى تتضمن أحكاماً لا تناسب مواقعهم ومصالحهم ، وأما الناسخة فهى التى تمشى فى خدمة اتجاهاتهم (١١).

نقول ذلك بالرغم من الجهد الكبير الذى بذله العلماء فى سبيل نقد سلاسل الاسناد من أجل التحقق من صحة الأخبار المنقولة ، أما فى منهج أركون فانه يعتبر هذا النقد وشبيهه الاستشراقى (أى التحرى الفللوجى التاريخى) لابد أن يتدخل فى المرحلة الأولى من البحث ، ولكن ليكون خطوة على الطريق لا كل العمل ، ثم نتجاوزه إلى ما هو أعمق بتحديد معنى كلمة الكلالة التى لم يحسمها البحث الاستشراقى أو التراثى على السواء ، ويقصد بذلك كيفية الانتقال من التفسير فى (كلام الله الحق) إلى الكلام الحق للفقيه أو العالم بأصول الدين وذلك من أجل ضمان الإيمان الحق لكل المؤمنين (١٢).

وينتقل بنا أركون إلى استعراض حرص الطبرى على تحقيق اجماع الأمة ،وهو المعتمد من قبل أمة المسلمين بمثابة التعبير الصحيح أو المقدس عن المقصد الإلهى المتضمن فى كلام الوحى ، مع انتقاد منهج الفللوجيه (١٣) فى قصوره عن الوصول إلى نتائج ملموسة بخصوص قضية المعنى (١٤) ويتناول سبعة روايات من الاخبار السبعة والعشرين التى يوردها الطبرى من أجل التوصل إلى معنى كلمة (الكلالة) ويستخلص عدداً من النتائج أولها محاولة الطبرى المستيسلة والضارية لإبقاء كلمة(كلالة) دون معنى ، أو العجز عن تحديد معناها ،والملاحظ أن الآية (١٦٧) من سورة النساء نفسها تحمل شهادة على راهنية المشكلة والحاحها وطرحها فى زمن النبى ، وذلك ليس فقط لأن مسألة الإرث كانت تشغل بال المؤمنين ، وإنما لأنه يبدو أن مكانة الكلالة تحدث وضعا جديدا يؤدى إلى زعزعة نظام الإرث العربى السابق ،ومن هنا نفهم سر المقاومة والمعارضة التى تمنع عمر، أى الشخصية الأساسية التى ركزت عليها الروايات ،من الكشف عن معناها الحقيقى(١٥).

تقول الآية(١٧٦) من سورة النساء:

«يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امروء هلك ليس له ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شئ عليم».

هذه الآية كان النبى يكتفى باحالة عمر إليها فى كل مرة يسأله فيها عن معنى الكلالة .وهى تشرح بالفعل طريقة الإرث لكنها لا توضح معنى الكلالة ، كل ما نفهمه منها أن المرء إذ يموت دون أن يخلف وراءه طفلا يمثل حالة من حالات الكلالة .وهو ما يبرر قراءة فعل(يورث) الوارد فى الآية(١٢) من نفس السورة بصيغه المبنى للمجهول لا المعلوم . ولكن إذا كانت الحالة المشروحة هكذا فى الآية(١٧٦) تكفى لتوضيح معنى الكلالة ، فلماذا يورد الطبرى كل ذلك العدد الهائل من الحكايات الدالة على قلق عمر وعلى التساؤلات الملحة والرازحة لمعاصريه ؟(١٦).

أما ثانى الاستنتاجات فهى أن التفسير التقليدى للقرآن لا يتردد فى حسم المشكلة التى يعترف بغموضها الكامل لصالح المعنى الذى تتطلبه حاجة الأمة وضغط العرف القائم على التشريع الخاص بالإرث.

والثالث أن المفسرين والقضاة قد حفروا هوة بين النظام التشريعى الذى قصده القرآن ،وبين النظام الفعلى المبلور والمطبق داخل إطار الدولة الخليفية ثم الإسلامية فيما بعد وحتى اليوم ،فالقرآن مثلا ألح على حرية التوصية ولكن الفقهاء ضيقوا عليها وشرطوها كما سنرى.

هذه الرهانات الخاصة بالقراءة تكشف لنا عن مدى الانتهازية التى حظى بها تفسير النص القرآنى من قبل الإكراهات الايديولوجية والنفعية لمفكرى الإسلام فى العصور القديمة (١٧) ويشير أيضا إلى التواصل المستحيل الذى يحاول المفكر المسلم الحداثى القيام به مع جمهوره ، من خلال إيضاح المفارقات التى لابد من استيعابها بين التراث الحكائى الشفاهى ،والتدوين من جهة ،وبين الآطر الاجتماعية للمعرفة واختلافها فى العصر الأول للإسلام عما نحن فيه الآن(١٨)

وبهذا الصدد نلاحظ أنه لا توجد فقط استمرارية منذ القرن الهجرى الأول وحتى اليوم للتشكيلة النفسية المرتبطة بالاخبار والشائعة لدى عموم المسلمين ،وإنما يوجد توسع سريع وواسع جدا لهذه التشكيلة بسبب التزايد السكانى فى البلدان الاسلامية

وبسبب استخدام الوسائل الحديثة فى نشر الخطاب الإسلامى التقليدى (١٩).

ثم يقدم لنا قراءة الآيات رقم(١٨٠- ١٨٢) ،(٢٤٠) من سورة البقرة(٢٠) والتى تكمن أهميتها فى الاعتراف الصريح بحق كل مؤمن ليس فقط فى حرية التوريث لمن يشاء ، وإنما بواجب التوريث عن طريق ترك وصية بأملاكه للأبوين وللأقارب وللزوجات ، أى لكل من لهم الحق فى ورثته والذين يستطيع توريثهم بارادته الصريحة أو حرمانهم من التوريث ، ولكن المشكلة هو أ ن هذه الآيات قد أبطلت أو نسخت من قبل الآيتين اللتين ذكرناهما سابقا من سورة النساء ، أو بمعنى أدق أعلن الفقهاء أنها باطلة أو منسوخة .وهذا ما يفسر لنا السبب فى الضغوط التى مورست لبناء الفعل (يوحَى) للمجهول ، هكذا نجد أنفسنا أمام ارادة صريحة ومتعمدة ، تهدف إلى حصر حرية التوريث ، باستخدام أداة الناسخ والمنسوخ (٢١) بالاضافة إلى التلاعب النحوى والمعنوى بالآية (١٢) من سورة النساء . وإذا كان من الصعب أن نحسم مسألة القراءات والتوصل إلى المعنى الحقيقىٰ لكلمته (الكلالة) فإنه يمكننا أن نفتح من جديد إضباره الناسخ والمنسوخ ،وهكذا يمكننا أن نتوصل إلى الحقيقة التالية: وهى أن المصدر الأساسى للفقه وبالتالى القضاء -ليس هو القرآن بقدر ما هو التفسير (٢٢).

ويأخذنا أركون فيها بعد ذلك إلى مناقشة تأسيس فكرة الاجماع فى الفكر الاسلامى، وكيفية التلاعب بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من أدوات فهم القرآن فى تأسيس الارثوذكسية الاسلامية.

٢- الاجماع والارثوذكسية:

لقد انتبه النقد التاريخى الحديث إلى الخاصية الحاسمة للاجماع وهى: إنه ناتج عن صيرورة اجتماعية وثقافية ،وعن جملة المناقشات والصراعات التى أدت إلى انتقاء بعض العناصر وحذف بعضها الآخر تحت ضغط الاكراهات الايديولوجية والضغوط السياسية والانظمة المعرفية التى لم تدرس أبدا حتى الآن بشكل دقيق (٢٣) ثم أن ممارسات التفسير الاسلامى التقليدى مليئة بالثغرات والشكوك والتناقضات والاختلال المنطقى والضعف . وهذه هى الأشياء التى يكشف عنها النقد التاريخى الحديث . ونحن إذ نقف بإزاء هذه الثغرات والنواقص نجد أنفسنا مدعوين كما قلنا

سابقا إلى الانتقال للمرحلة التالية من البحث عن طريق طرح الأسئلة التالية:

١- ما هو النظام المعرفى الذى يمكن استخلاصه من الممارسة التفسيرية الاسلامية والعلوم الملحقة كعلم أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ،والاخبار ، والنحو ، والخطابة ، وعلم المعانى ؟ ،وما هى المكانة الابستمولوجية لهذا النظام المعرفى؟..

٢- مع موضعة هذه العلوم على محك التطبيق ،ما هو التعديل الذى تحدثه هذه الطرق السردية (القصص والحكايات) على الخطاب القرآنى ، أو ما هى العلاقات التى يتعاطاها العقل مع العلامة الدلالية ؟(٢٤).

٣- ما الدور الذى يقوم به الفاعلون الاجتماعيون فى تشكيل الخطاب الدينى والتفاعل معه ، وتراكماته الدلالية والسيميائية فى صناعة حجاب حاجز عن بنية الخطاب الأساسية؟.

ثمة عوامل كثيرة تجعل مهمة تحديث الفكر الإسلامى شيئا بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا ، ومع ذلك فسوف نقوم بهذه المحاولة العبثية عن طريق تقديم بعض المقترحات -التى يقترحها أركون بالطبع-لأجل تشكيل «تيولوجيا -أناسية- منطقية) للوحى.

٣- عقل إلهى ، خطابات بشرية:

كل ما سبق يبين لنا بوضوح إنه ينبغى تجاوز المفهوم التقليدى للاجتهاد والممارسة العقلية المحدودة المرتبطة به، وذلك عن طريق النقد الحديث للعقل (٢٦).

فمسلمو اليوم يجدون صعوبة كبيرة فى الفصل بين المكانة اللاهوتية للخطاب القرآنى ، وبين الشرط التاريخى واللغوى للعقل الذى ينتج خطابات بشرية أرتكازا على العقل الإلهى (٢٧) وذلك اعتمادا على قراءة اعتيادية للتفسير كأن يقول الطبرى فى تفسيره قبل شرح كل كلمة «يقول الله » ثم يعطى شرحه ،فإنه لا يطرح أبدا امكانية أن المقصد الإلهى قد يختلف مع شرحه للآية ، وهكذا يتصدى العقل البشرى المتهم حاليا -بكل إمكاناته المعرفية- بالقصور -نقول يتصدى العقل الطبرى أو الزمخشرى للخطاب الإلهى شارحا مقاصده!.

فالاجتهاد ، تعريفا ،هو فعل من أفعال الفكر النظرى الموجه نحو المعرفة ، إنه البحث عن الأسس الإلهية والمعرفية من أجل تبرير الاحكام الشرعية .. لهذا السبب-

فيما يرى أركون -فإن تجديد الاجتهاد اليوم سوف يؤدى حتما إلى زعزعة الحقائق الأكثر شعبية وألفة وإلى تصحيح العادات الأكثر رسوخا ، وإلى مراجعة العقائد الأكثر قدما.

إن الاجتهاد عمل من أعمال الحضارة وجهد من جهودها ، وقد مثّل من خلال المفكرين المسلمين طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى حيوية خلاقة لحقل فكرى كبير ولثقافة ونظام معرفى مؤسس لنظام سياسى وإجتماعى وقانونى محدد ومعروف. ومن الطبيعى ، بل والضرورى والعاجل ، أن نعود اليوم إلى كل هذه المجالات والميادين فنعبرها من جديد من أجل بلورة تيولوجيا- أناسية- منطقية متصورة على أساس أنها جهد متواصل لتحرير الوضع البشرى (٢٨).

هذه فى النهاية هى اقتراحات أركون من أجل الانتقال من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامى ، لكن السؤال الذى يظل قائما : متى يتم هذا الانتقال ، وكيف فى ظل ما نعانيه من اكراهات وممارسات على مستوى عالمنا العربى المعاصر ،وهل تتحقق فى النهاية هذه المشروعات الفلسفية الطموحة إلى خلق وعى إسلامى جديد منفتح وحيوى ؟ الأسئلة أكثر من اقتراحاتنا ، ولكن المهم فى النهاية هو أن نتواصل لأجل إسلام أكثر عقلنة وعلمنة وجدية منهجية ، بعيدا عن كل التراكمات التى أشرنا إليها، من خلال دراستها وتفحصها النقدى بالأساس (٢٩).

الاشارات والايضاحات

(١) الكتاب صادر عن دار الساقى- لندن- بيروت طبعة ثانية ١٩٩٥ .

(٢) اسكولاستيكى : بالمعنى الأصلى والحرفى تعنى المدرسى (الرأى الذى يعلم فى المدارس)لكنها بالاصطلاح الشائع تعنى الروح التكرارية والدوغمائية والاجترارية لآراء السابقين وفى السياق تعنى الخطاب المتصف بالصفات السابقة .

(٣) الارثوذكسية: تعنى فى الاصطلاح الرأى المستقيم أو الصحيح ، وكل ما عداه منحرف وضال وخاطئ ومهرطق ، هذا هو المعنى الاصطلاحى الايتمولوجى ، ولكن المعنى الشائع يعنى غير ذلك أى الرأى الدوغمائى المتصلب والمتزمت والذى فرض نفسه بالقوة بوصفه الرأى السليم.

(٤) محمد أركون: الفكر الاسلامى : قراءة علمية : ترجمة هاشم صالح: ص٢١٢، ٢١٣

، وأنظر كذا٢٢٥ -المركز الثقافى العربى ، ومركز الانماء القومى -بيروت ١٩٨٧.

(٥) محمد أركون : من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامى : ترجمة هاشم صالح : دار الساقى لندن- بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٣.

(٦) شروط الاجتهاد الكلاسيكية التى وضعها الفقهاء تتمثل فى:

١- معرفة اللغة العربية. ٢- معرف الكتاب القرآن بكل تفاصيله (أسباب النزول- الناسخ والمنسوخ- المحكم والمتشابه..إلخ) ٣- معرفة السنة النبوية وأحكامها . ٤- معرفة أصول الفقه، ٥- معرفة مواضع الاجماع - ٦ ومقاصد الشريعة- ٧- الاستعداد الفطرى للاجتهاد (راجع الوجيز فى أصول الفقه : د. عبد الكريم زيدان- دار النشر والتوزيع الاسلامية) طبعة أولى ١٩٩٣ ص٤٠٠ -٤٠٣.

(٧) من الاجتهاد إلى.. سبق ذكره ص٧٠.

(٨) المقصود بالاسلاموى هنا: الذى يستخدم الدين كسلاح سياسى فقط دون أى اهتمام الابعاد اللاهوتية أو الروحية للإسلام.

(٩) تعبير « مسَيرى شئون التقديس) يرجع إلى عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر . وهم المسئولون فى نظره والمكلفون من وجهة السلطة الدينية بتحديد ما هو مقدس ، ويحتكرون القداسة والتقديس ويبيعون صكوك الغفران.

(١٠) من الاجتهاد إلى.. سبق ذكره ص٣٠.

(١١) من المعروف علميا أن الفقهاء هم الذين حددوا الناسخ والمنسوخ وترتيب وأسباب النزول ، وهنا لانستبعد الاستخدام النفعى للقرآن لأجل خلق امتيازات فقهية أو سياسية وبالتالى فنحن بحاجة إلى مراجعة هذه العلوم من جديد وراجع الكتاب المذكور ص٣٩.

(١٢) السابق نفسه (ص٤٢).

(١٣) يترجم مصطلح الفللوجيا عادة إلى اللغة لعربية بفقه اللغة لكنه يعنى فى تشكله التاريخى تحقيق النصوص القديمة أو المخطوطات على أسس علمية.

(١٤) المعروف أن كل محاولات التفسير فى النهاية أو التأويل هى محاولة لاخضاع النص لتأويلات قارئة ، وراجع بحثنا (نقد سلطة النص :: بين التأويل والتأويل المعاكس) أدب ونقد- العدد ١٦٤ لسنة١٩٩٩ -ابريل ص٣٧-٤٤).

(١٥) من الاجتهاد .. السابق ذكره ص٥٢.

(١٦) نفسه ص٥٣.

(١٧) راجع بحثنا المنشور بالعدد ١٦٨ أغسطس ١٩٩٩ من أدب ونقد ، والمعنون «نقد الاسلام الموضوع» والذى ناقشنا من خلال ثلاثة أمثلة على الاستخدام النفعى للنص من خلال تأويل قصة الغرانيق وزينب بنت جحش فيما يخص عصمة النبى ،وقصة فداء الله لاسحاق أو اسماعيل وتثبيت الفكر الإسلامى لفكرة فداء إسماعيل دون أى سند قرآنى وأثبتنا فيه التطاول على النص القرآنى من قبل الاسلام السنى!.

(١٨) التواصل المستحيل تلك الفكرة قائمة على الهوة الفاصلة بين الخطاب العلمى من جهة والخطاب الدينى وبين الجمهور من جهة ثانية ،وهو ما يعنى أن المفكر المسلم يظل يكتب لطائفة محدودة جدا من المثقفين لانتاج خطاب علمى حول الاسلام وبالتالى يظل منقطعا لعجزه عن تبسيط كل هذه العقد فى صياغات لغوية تقترب من الخطاب الدينى الشعبوى ،لأنه منتج لخطاب علمى بالأسباس وليس إيديولوجيا أو تعبويا.

(١٩) من الاجتهاد إلى... المرجع السابق نفسه ص٦٤.

(٢٠) اثرنا إثبات نص الآيات فى الهامش اختصارا لمساحة المتن:

١- «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت أن ترك الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين» ح: الاية(١٨٠).

٢- فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم» (٢) الآية ١٨١.

٣- «فمن خاف من موص حنيفا أو إثما فأصلح بينهم فلا اثم عليه أن الله غفور رحيم:٢- الآية (١٨٢).

٤- «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لازواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ،فإن خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم)الآية ٢٤٠ من سورة البقرة .

(٢١) تنبغى هنا الاشارة إلى البحث المفصل الذى كتبه أستاذنا د. سيد محمود القمنى عن النسخ فى الوحي : محاولة للفهم فى كتابه الأسطورة والتراث ، الطبعة

الثانية ١٩٩٢ - دار سينا للنشر -والتى أوضح فيها الدور الايديولوجى فى وضع علوم الناسخ والمنسوخ وتقسيم الفقهاء للاحكام على هذا الاساس.

(٢٢)كتاب أركون : من الاجتهاد..إلى ص٦٨ وما بعدها.

(٢٣) السابق نفسه ص٧٧.

(٢٤) للمفكر الفرنسى ميشيل فوكو كتاب هام جدا إسماه (الكلمات والأشياء) درس فيه الفكر الأوربى من خلال موقفه من العلامة اللغوية ،ففى العصور الوسطى كان الفكر يقوم على مبدأ التشابه والتطابق مع العلامة ، كانت الكلمات هى الأشياء ،والأشياء هى الكلمات وهذه هى الرؤية الإسلامية حتى الآن ،فالفكر الاسلامى بهذا المعنى لا يزال ينتمى إلي الفضاء العقلى للعصور الوسطى لأن تصوره للعلامة أو اللغة هو ذات التصور القروسطى.

(٢٥) «تيولوجيا- أناسية- منطقية» بمعنى تكوين علم لاهوت إنسانى المنشأ والمصدر منطقى ، مقبول ،وتأسيس انثربولوجيا قرآنية تموضع الإنسان فى العالم وتحرره من أسركل أشكال القسر والقهر.

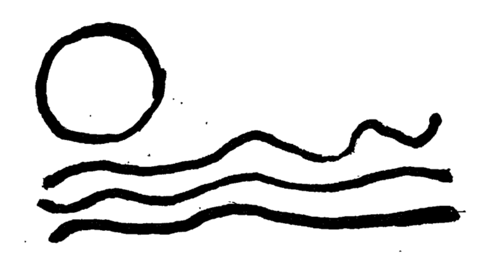
(٢٦) كتاب أركون المذكور ص٩٢.

(٢٧) نفسه ص٩٦.

(٢٨) نفسه ص١٠٧ الأخيرة.

(٢٩) لنا بعض الملاحظات:

١-بعد مراجعة مختار الصحاح توصلنا إلى معنى مقترح للكلالة (ك- ل- ل الكل العيال والثقل . قال الله تعالى :«وهو كل على مولاه » والكل أيضا اليتيم . والكل أيضا الذى لا ولد له ولا والد يقال منه: (كل الرجل يكل بالكسر (كلالة) . قال ابن الأعرابى: (الكلالة) بنو العم الا باعد وقيل: الكلالة مصدر من (تكلله) النسب أى تطرفه كأن أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد فليس له منهما أحد فسمى بالمصدر . والعرب تقول : هو ابن عم(الكلالة) وابن عم (كلالة) إن لم يكن كاو كان رجلا من العشيرة) انتهى مختار الصحاح مادة(ك. ل. ل) ص٥٧٦ مطبعة الجلى بالقاهرة طبعة أولى ١٩٩٤ . محمد ابن أبى بكر الرازى وفى المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية) (لكلالة) أن يموت المرء وليس له والد ولا ولد يرثه ، بل يرثه ذوو قرابته (٥٣٩) وهكذا تحدد معناها



لغويا تعبيراً عن الاكراهات القديمة

٢- بمراجعة تفسير ابن كثير الجزء الأول من طبعة المكتبة القيمة ص٤٣٦ فى تفسير الآية (١٢) من سورة النساء أورد بعض الروايات حول اختلافهم على معنى الكلالة -يعنى الصحابة -إلا أنها تدور حول الشخص منقطع النسب.

أما فى تفسير نفس الآية فى (الكشاف) للزمخشرى طبعة دار الريان للتراث والكتاب العربى ص٤٨٥ فوجدناه يقول بدون مماحكات جدلية أو روايات عن ضياع معناها ، فإن قلت ما الكلالة ؟ قلت : ينطلق على ثلاثة على من لم يخلف ولدا ولا والدا ، وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين .وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد، والمعروف أن محمود بن عمر الزمخشرى توفى عام ٥٢٨ هجريا وابن كثير توفى عام ٧٧٤ هـ والغريب أن يتحدد المعنى عند الزمخشرى المعتزلى بما يوافق المعانى المعاصرة ، ويفتقده الطبرى ، ويدور حوله ابن كثير... ألا ترى معى كم المفارقات المثيرة للدهشة والدراسة والتقصى؟!.

هذه هى بعض الملاحظات النهائية حول القضية التى يثيرها البحث موضوع المقال.



طالبان :
الدين ، الوطن ، المخدرات

عرض : أسامة الرحيمى

طالبان !!

العمائم والمدافع والأفيون !

ثلاث كلمات واضحة ، معلومة المعانى ، لكنها مداخل متعاقبة لعوالم من الغموض والالتباس الذى قد يصل إلى الفوضى فى بعض درجاته . لهذا فان أسئلة لهفى تترى لاهثة لاهبة :

من طالبان . هؤلاء ؟ هل هم العمائم المقصودة فى العنوان السالف ، وهل تختلف عمائم هؤلاء الـ " طالبان" عن عمائم أولئك " المجاهدين "؟!

ولماذا بقيت المدافع وسيلة وحيدة للتفاهم فيما بينهم للآن ؟ ومن الذى ينفخ من روحه فى جذوة الحرب التى لم تنطفئ حتى وقتنا هذا ؟!!

وماحكاية الأفيون؟ وهل ثمة علاقة تربط الدين والعمائم بالمخدرات ؟ وكيف تحتفظ " دار الخلافة الإسلامية" الأفغانية بلقب " أكبر مصنع للمخدرات فى العالم "؟ وما صلة " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " بالحشيش والأفيون وتجارة السلاح؟!!

قد لايتمكن أحد من الإجابة عن هذه الأسئلة الموجعة على نحو قاطع ، حتى أعضاء" طالبان" أنفسهم قد يعجزون عن تفسير مايفعلونه ومايفعل بهم.

لكن كل هذه الالتباسات لم تحبط " عبد الحليم غزالى" الصحفى المصرى الدؤوب من السعى خلف الحقيقة ، وفى محاولة باسلة خاض غيوم الضباب

أنحاء أفغانستان - طالبان - المتفرقة ، بنية البحث عن « الوضوح » ، فقطع رحلة شاقة بين بلدان ذلك الوطن الممزق ، مدنا وقرى ، والتقى المسئولين ، على رأسهم " محمد عمر" .." أمير المؤمنين" .. وزعيم طالبان ، وتحدث إلى قيادات الحركة ، وقابل " يونس خالص " وهو شيخ فى الثمانين ومن رموز الأنظمة الإسلامية السابقة ومنشق على حزب حكمتيار - ١٩٨٠ - ، وظل " عبد الحليم غزالى " يسأل الناس أينما حل عن أحوالهم الاجتماعية ولم يكف عن استكشاف أوضاعهم الاقتصادية المنهارة والمتفاوتة ، وهذا كله فى النهاية وفر لنا مادة ثرية ، جاءت أشبه بالفسيفساء ، صغيرة القطع التى تصنع لوحات ضخمة مزدحمة بالتراكيب والملامح والألوان ، ولكنها فى النهاية تشكل خريطة لأفغانستان المنكوبة ، ومن جانب يساعدنا هذا أيضا على الخروج بمفاهيم أقرب إلى الحقيقة ، وإن كانت نسبية ، لكنها تظل موجعة . موجعة جداً !!

وقبل اللف والدوران فى تلافيف الوضع الأفغانى ، لابد من التذكير - بالضرورة - بكل ماكان يتردد عن أفغانسان فى مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية ، فى الجامعات والمساجد والمصانع والشوارع ، فالدعاية للمجاهدين الأفغان كانت " أم الأنشطة " وأول الاهتمامات ، وكانت جملة وحيدة مثل " ادفع جنيها تنقذ مسلما" كفيلة بالهاب مشاعر العامة والبسطاء ومحدودى الوعى ، وفتح جيوبهم ، وإدرار دموعهم ، وراح هؤلاء ينظرون للمجاهدين على أنهم حماة الإسلام ، وحراس العقيدة ، وأنهم يقاتلون فى سبيل الله ، وأنهم ورثة الرسول ، وأن ميتهم شهيد ، وعدوهم شيوعى ، أحمر، كافر ، ومن يتبرع لهم يقترب من الجنة ، ولهذا تدفقت التبرعات ، نتيجة لواحدة من الحملات بالغة الدقة ، محكمة التنظيم ، وتقاطرت الأسلحة من جهات سخية مجهولة ، وأحاطتهم موجات إعلامية مؤيدة ، مكثفة وذكية، روجت لهم فى أنحاء العالم ، وانطلقت مطارق الإسلام تدق رؤوس السوفيت الملاحدة ، أعداء الله والبشر ، الذين احتلوا أراضى أفغانستان المسلمة ، وهاجموا الشعب المؤمن الآمن .

وسط كل هذا - أذكر جيدا - طالعتنا جريدة الأهالى - آنئذ - بتحقيق صحفى من أفغانستان ، أعترف أنه كان صادما ، دفعنى إلى بعض التنصل ،

لأن ماجاء به كان مروعا ، ومغايراً للسائد ،" فالمجاهدين .. الأبطال .. حراس العقيدة" لم يكونوا غير مجموعة قبائل متشرذمة ، تتصارع على الأموال ، وتتخاطف التبرعات ، وتتنازع صفقات السلاح ، ويتقاسمون مناطق النفوذ ، ويوزعون على أنفسهم الألقاب ، ويتجرون فى المخدرات بكميات خرافية ، ولايحبون أن ينسحب السوفيت لضمان استمرار المنافع . لكن من كان يصدق كل هذا . مع أن الأيام أثبتت أن ذلك الكلام كان هو الوجه الوحيد للحقيقة.

ولم يسلم التجمع وقتها ولاجريدته، ولأصحاب التحقيق الصادق من هجمات هستيرية ، اتهموا خلالها بالعمالة للسوفييت ، ومعاداة الإسلام ، وخاف البعض من سيف التكفير المشهر ، وآثر البعض الصمت ، إلى أن جاء " جورباتشوف" وفاجأ الجميع بسحب القوات السوفيتية - ١٩٨٩ - وفر أعضاء الحكومة الشيوعية ، ودانت البلاد للمجاهدين ، وانتصر حماة الدين الذين التف حولهم المسلمون فى أنحاء الأرض ، وبدا الأمر كأن عصر الفتوحات ومجد الغزوات قد عاد.

لكن الحقيقة لم تكن بعيدة ، كانت ترقد فى الجوار ، فسرعان ماستدار القبليون بذات العمائم ، ووجهوا فوهات ذات المدافع - التى حاربت الملاحدة - صوب القلوب العامرة بالإيمان ، وانطلقت " داناتهم " لتدك المساجد ومواطئ السجود وتحرق اللحى التى استطالت ، والأهم لتفض الغموض الذى أحاطهم طويلا ، وفضحت الخلافات بين الفصائل والقبائل ، وأكدت على نحو فادح ، أنهم لم يكونوا - فى أية لحظة - سوى مرتزقة ونفعيين يسعون بدأب خلف المغانم والأسلاب ، وأن التبرعات والمخدرات وتجارة السلاح كانت فقط هى الدين والدنيا ، وكانت هى فرض العين والكفاية والجهاد فى سبيل الكسب ، والكسب فقط ، والحقيقة لم تكن غير النصب على بسطاء المسلمين الذين اقتطعوا من لقيماتهم (الحاف) ليساندوا المقاتلين فى سبيل الله ، لكنها آلة الإعلام الغربى الضخمة التى أغرقت العرب فى عداء لايخصهم وجهاد لايعنيهم ، وصرفوهم عن واقعهم الأليم .

ثم ظهرت عمائم ثانية!!

طالبان !!

على استحياء بدأوا فى ضم الفصائل المتناحرة ، حرباً أو سلماً ، وتدريجيا أخذوا يسيطرون على مناطق أفغانستان بلدة وراء الأخرى ، وسرعان ماتساقطت معاقل المجاهدين تحت ضربات " طالبان" ، وسيطروا على أكثر من ٩٠٪ الآن من البلاد بأسرع من كل التوقعات ، ودانت لهم الدنيا ، ورفعت المدن والقرى رايات " طالبان " وهتف البسطاء " طالبانو زند آباد" - تعيش طالبان بلغة الباشتو - وكتبت الأشعار وسجلت الأشرطة ووزعت وعلت الأصوات تغنى لهم :

كيف تهجمون أيها الظالمون

على هذه النطفة الجديدة

إنهم قادمون إليكم

ودولتكم زائلة وفانية

لقد ثبتوا وسجلوا بطولاتهم فى التاريخ

أيها الطلاب لقد أرسلكم الله

هدية إلى هذه الدنيا والأمة !

لكنهم أطفأوا كل شئ !! هؤلاء الذين أرسلهم الله!!

منعوا التعليم المدنى ، وقصروه على تعليم دينى أشبه بنظام الكتاتيب ، ومنعوا تعليم البنات ، وألغوا التلفزيون، وكسروا أجهزته فى البيوت ، وحددوا البث الإذاعى بخمس ساعات فى اليوم ، وحصروا البرامج فى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » و« ضرورات الإسلام » و« صراط الفلاح » وقد يتوقف الإرسال لانقطاع الكهرباء بسبب انهيار الشبكة وتدهور الخدمات ، لكن صوتا هادرا يأتى عبر الأثير لايتوقف أبدا عن الصراخ " هنا قندهار .. دار الخلافة الإسلامية "!!

زار " عبد الحليم غزالى" المطبعة الأميرية الباقية من عهد الملك ظاهر شاه الذى حكم أفغانستان قبل الشيوعيين ، وتصدر هذه المطبعة صحيفتين أسبوعيتين هما" الخلافة" - ٣٠٠ - نسخة ،" وطلوع أفغان" - ٢٠٠٠ - نسخة ومجلة باللغة العربية اسمها " الطالب" وهى شهرية ، وهذه المطبوعات تخدم أهداف طالبان وتغطى أخبارها وفتاواها ، وتشتمل المقالات على آراء قيادات الحركة وتكشف توجهاتهم ونياتهم.

ولاتقدم المطبعة شيئا له قيمة غير الصحيفتين والأوراق الحكومية والشهادات المدرسية . وعندهم مكتبة عامة وحيدة فى قندهار مكونة من غرفة واحدة متوسطة المساحة معظم الكتب الموجودة فيها للآن باللغة الروسية « كادت الأتربة تحجب عناوينها فى مشهد ينتمى إلى ماضٍ أفل ».

وفى مدرسة « أمير المؤمنين » التى تضم تلاميذ من أعمار متباينة تقتصر الدراسة على المواد الدينية ، ومنعت كل المواد العصرية.

وفى لقاءات مع مختلف مسئولى سلطة طالبان تبين أن أغلبهم من غير المتخصصين مثل " محبوب الله" رئيس فرع البنك الوطنى وهو« لم يدرس الاقتصاد » إطلاقا ، ولم يكمل دراسته أصلا ، ويؤكد ببساطة .." أن الاقتصاد الأفغانى دمر فى السنوات العشرين الأخيرة ، ويمر بمرحلة صعبة جدا .. وأنه ضعيف جدا".

والعجيب أن طالبان لم تطبع نقودا حتى الآن ، والنقود المتداولة " تعود إلى العهد الشيوعى، وعهد الرئيس المخلوع برهان الدين ربانى ، والنقود التى طبعها دوستم تستبعد من التداول".

وهكذا فان جميع المسئولين فى بقية المجالات يتمتعون بذات الجهل ، والأكثر نشاطا وفعالية بينهم هم أفراد جماعة " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر " الذين قاموا بمصادرة كل الأجهزة ، المسجلات والتلفزيونات والفيديو والأشرطة والأسطوانات ، حتى الدفوف والدمى وألعاب الأطفال ، .. الخلاصة .. صادروا كل شئ ، وأظلمت حياة الناس تدريجيا ، وبدأ الليل من داخل رؤوس قادة طالبان ومن دورهم لينتشر واثقاً فوق البلاد ليغطى أنحاء أفغانستان ، وكأن يدا خفية تكسر المصابيح واحداً تلو الآخر .. فنرى وطناً كاملاً ينطفئ !!!

وفى " حضرة مولانا أمير المؤمنين " الملا" محمد عمر" مكث " غزالى" – صاحب الكتاب ثلث الساعة فقط ، حددت له بصرامة ، زرعوا قبلها الرهبة فى نفسه ، لحرصهم على إضفاء هيبة مزعومة على " أمير المؤمنين" وإحاطته بالغموض ، مثلما هى عادة صناع الطغاة.

وصف المؤلف غرفة " الملا أمير المؤمنين" بقوله : " ضوؤها يكاد يكون غبشاً " ويضيف .." صافحت الرجل الذى رأيت ملامحه بصعوبة ، شد على

يدى ، وقد بدا طوله فارعاً ، ولمحت من طرف خفى عينه اليمنى المفقودة " .." وتحلق حوله معاونوه ومستشاروه وذوو الحاجات ، واتخذوا الأرض موطئا لأقدامهم دون جلوس كامل ، وقد بدأ بعضهم بالانصراف ليبدأ الحوار المبرمج ، الذى قطع شك التأمل بيقين الكلام ".

وخلال الحوار القصير " دافع أمير المؤمنين " الملا عمر" عن قتل الدبلوماسيين الإيرانيين بحجة أنهم غير مسجلين ، وأعرب عن استعداده لحرب بعيدة ، ورفض أية مصالحة مع المعارضة إلا إذا استسلموا لسلطة " طالبان" وقال: " تلك الفئة المجرمة والجماعة الخائنة التى باعت نفسها وبلدها للمستعمرين الأجانب لن يقبل الشعب الأفغانى ولا الإمارة الإسلامية أن تشارك فى الحكومة"

ثم أكد " أمير المؤمنين" .." أن تعليم المرأة ممنوع وقاصر على العلوم الشرعية" .. وأنهى المساعدون اللقاء بسرعة وحسم ، واستكمل " عبد الحليم غزالى " الحوار مع " وكيل أحمد متوكل" الذى يوصف بأنه " واجهة طالبان ولسانها" ، ومن المفارقات التى وردت ضمن إجاباته « أن الوضع كان سيئا والسبب تغييب الشريعة ، وعلى سبيل المثال كان اللواط منتشراً بل إنه كان شيئاً عادياً وحتى بين قيادات من كانوا يوصفون بالمجاهدين فى السابق".

وقال الرجل فى موضع آخر :" طالبان حركة وليست حزباً سياسياً" .." وبعد السيطرة الكاملة على أفغانستان سيكون هناك نظام مختلف ، ليس ديمقراطيا ولاملكياً ، وكما قلت سيكون هناك مجلس شورى عام سيجرى اختياره بين الأفغان لكننى أشدد ، لانريد الديمقراطية الغربية أو النظام الملكى".

وفى إجابة عن سؤال آخر قال" وكيل أحمد متوكل" لسان حال طالبان – " لقد أمرنا الناس بعدم تعاطى المخدرات ، لكن الزراعة مشكلة بالنسبة لنا ، فليس لدينا مانقدمه لمساعدة الزراع كبديل للمخدرات ، خاصة أنها مصدر دخلهم الوحيد ، ولذلك فالزراعة مستمرة إلى أن نجد البديل" .

وفى كابول قضى " غزالى" عدة أيام تحت القصف والصواريخ التى لاتفرق ولاتعرف الرحمة ..". فى الصباح ذهبت لتفقد موقع الصاروخ ،

كانت الأشلاء قد جمعت فى أوان بلاستيكية ، ورجال الإنقاذ يعملون بهمة بين الأنقاض ، لكن الحزن والخوف كانا متواريين فى العيون التى خاصمتها الدموع "!!

ويضيف :" غادرنا الموقع فى ليل مخيف ، لكن الخوف تبدد شيئا فشيئا مع الاقتراب من احتواء كابول، تلك المدينة التى شغلت العالم ، وبقيت مشغولة بحربها وسلامها المتعايش ، وعندما تتأمل أسواقها ولغط البيع والشراء تشعر أن الصواريخ التى تتساقط ككرات السلة فى الملعب هى فى مدينة أخرى . إنه موت بلا خوف ، وحياة لايستوقفها الموت".!!

وفى حديث مع المهندس " منير نجيب الله شمس" سكرتير عام المفوضية العليا للحد من المخدرات ، فى إمارة أفغانستان الإسلامية" وفى إجابة عن سؤال عن حجم زراعة المخدرات فى أفغانستان قال:" اعتماداً على إحصائية العام ١٩٩٧ التى أعدها برنامج الأمم المتحدة للحد من المخدرات فان(٤ر٥٨ ألف هكتار تزرع بالكوكنار (الخشخاش) فى أفغانستان ويبلغ مجموع محصولها السنوى من الأفيون ـ ٢٨٠٠) طن مترى .

وكان أهم الأسئلة : هل طالبان متورطة فى زراعة وتجارة الأفيون؟ وأجاب عنه " الماى شيرزاد" مسئول أفغانستان فى المكتب الإقليمى لغرب آسيا التابع لبرنامج الحد من المخدرات الدولى ، وكانت إجابته واضحة :" لاتوجد لدينا أدلة على ذلك لكن البنك الدولى يقول إن المخدرات هى أحد مصادر دخل طالبان وحسب معلوماتنا فانهم يأخذون العشر من " زراع الخشخاش" والعشر كما هو معروف " زكاة الزروع الشرعية"!!

" وفى إحالة للتقرير وجدنا فيه - والكلام لمؤلف الكتاب -:" أن أفغانستان هى المنتج الأول للأفيون فى العالم ، حيث وصل حجم الانتاج إلى(٣٢٠٠) طن بزيادة قدرها ١٦٪ عن العام ١٩٩٧ ، وقدرت الأراضى المزروعة بالخشخاش بـ (٦٣٦٧٤) هكتاراً ، أما الحقيقة الأهم فى التقرير فان ٩٦٪ من إنتاج الأفيون يتم فى ولايات تسيطر عليها طالبان ، بل إن ولاية بغلان التى استولت عليها طالبان فى العام الحالى زاد إنتاجها من الأفيون بنسبة (١٨٤٪) ، ووفقا لذات التقرير فان ولايتى " قندهار" و"هلماند" الجنوبيتين و" ننجرهار" الشرقية توفر (٧٢٪) من أفيون أفغانستان ، وحسب التقرير

فان قيمة الأفيون الأفغانى بلغت (١.٥) ملايين دولار مما يجعله المحصول الأول من حيث دخل البلاد!!

وفى مسح للأمم المتحدة جاء « إن التجارة علنية داخل أفغانستان والأسواق مفتوحة للجميع فضلا عن تجارة موازية تتم من البيوت ، وفى منطقة " سانجيان" سوق بها(٢٠٠٠) محل اسمه " سوق الأفيون" والتجار الصغار يأتون بالأفيون من الزراع حيث يختار التجار الكبار الأصناف التى يريدونها للتصدير تمهيدا لبيعها للبارونات الذين يحولونها إلى هيروين فى باكستان أو طاجيكستان أو إيران لتأخذ طريقها إلى المستهلك الغربى . كما نقل صحفى غربى عن زارع خشخاش أفغانى :" الغرب يرسل لنا السلاح وطلقات الرصاص ونحن نرد بالهيروين "!!

وعن لحظاته الأخيرة فى كابول يقول" عبد الحليم غزالى" :" أحسست فى قلب آخر ليلة فى كابول بانحياز كبير فى أعماقى لهذه المدينة ، وأننى سأفارق حبيبة لم أر سوى وجهها البائس وحزنها الشامخ"!!

ولم ينس رغم مرارة العنوان والموضوع -" طالبان - العمائم والمدافع والأفيون" - أن يورد بعض النكات المبكية ومنها " أن جماعة من طالبان كانوا يستعدون لركوب طائرة هليوكوبتر فخلعوا نعالهم ، وطارت بهم إلى مكان بعيد ، وعند هبوطهم أخذوا يبحثون عن أحذيتهم "!!

وختم بجملة جارحة.." المهم أننى رأيت فى أفغانستان من يضحكون ومن يلقون النكات ، وهذا هو الوجه الآخر الذى لايراه كثيرون ، فالأفغان بشر ومهما بدوا قساة مع أنفسهم ، فالسمات البشرية تفصح عن نفسها دائماً .

تحية للكاتب" عبد الحليم غزالى " الذى اعتمد الحكى العفوى كمنهج ماكر ، وكأنه لايقصد ، فنقل الوقائع حسب وقوعها دون تصنيف أو تبويب ، ليفلح فى النهاية أن يقص علينا أعجب وأوجع حكاية فوضى ناتجة عن مخططات محكمة ، قصد بها عن عمد إغراق ذلك البلد التعس والدول الإسلامية فى معارك لانهاية لها ، وأن تجوس فى مستنقع المخدرات والسلاح ، وكلما حاولت الخلاص غاصت أكثر ، لتلطخ أوحال الجهل . العمائم وتجللها بالعار ، وتخضب لحى الظلاميين بحناء خيانة الدين والوطن!!

حوار

فى حديث غير معروف:

جان جينيه:

كنت طيلة حياتى ضد

مات جان جينيه كما عاش فى فندق ، شريداً مجهولا(١٥ أبريل ١٩٨٦)، ظل يجرى بين اليونان ، تونس ،المغرب وقليلون هم الذين يعرفون مخابئه الغجرية .قليل الكلام وربما إنه كان يكره الكلام ، لهذا هم قليلون أولئك الذين استطاعوا أن يسجلوا معه حوارا. وأيضا لأن فى كلامه القليل حقداً كبيراً، مغلفاً ببعض الأدب ولكنه حقد على كل حال حقد على أولئك الذين داسوه، أهانوه .. طلب منه ميتران وجاك لانغ أن يرسلا رساما يرسم له لوحة : فأجابهما: أنا لى اسم عائلى واسم شخصى ،لماذا تريدون أن يكون لى تمثال أيضاً؟.

*** ألغت فرنسا حكم الإعدام . أريد أن أعرف مدى التأثير الذى تركه فيك أن تعلم أنه لن تقطع رؤوس فى فرنسا بعد الان؟.**

* لم أكترث لهذا بتاتا، فقرار إلغاء الإعدام قرار سياسى . السياسة الفرنسية لا تهمنى .. ما دامت فرنسا لا تهتم بتلك السياسة التى يسمونها شمال / جنوب ، ما دامت فرنسا لاتولى مزيدا من الاهتمام بالعمال المهاجرين أو المستعمرات القديمة، فإن السياسة الفرنسية لا تهمنى فى شئ . لا يهمنى كثيرا أن تقطع رؤوس البيض أو لا تقطع . تصفية الحسابات التى تتم بين أولئك الذين كنا نسميهم الصعاليك والقضاة لا أهمية لها بالنسبة لى.

*** لا يهمك حقا أن نحاول تقليص العقاب أو إلغاءه؟.**

* فى فرنسا ، لا ، لا يهمنى.

*** فى حالة ما إذا تم الوصول إلى إنشاء مجتمع لا عقاب فيه ، ألن يجعلك هذا مرتاحا بدرجة أكبر؟.**

* أن تصنع ديمقراطية فى البلد الذى كان يسمى قديما البلد الأم Metropole ،فهى فى النهاية ديمقراطية ضد السود أو ضد العرب . الديمقراطية موجودة فى انجلترا منذ زمان، بين الانجليز على الأرجح ، معرفتى بالتاريخ الانجليزى سيئة، ، ولكننى أعتقد أن الديمقراطية الانجليزية ازدهرت لفترة طويلة عندما كانت الامبراطورية الاستعمارية الانجليزية مزدهرة ،إلا أنها كانت تمارس ضد سكان الهند.

*** تعتقد أن ترف البلدان الغنية الاقتصادى والسياسى يؤدى ثمنه العالم الثالث؟.**

* لا أرى غير هذا لحد الساعة.

*** وما هو المجتمع الذى ترتاح له، يعنى الذى يثير اشمئزازك بدرجة أقل؟.**

* هنا لا أستطيع أن أجيبك سياسيا ، وإنما دينيا تقريبا الشر ،كما الخير جزء من الطبيعة البشرية، ويعبر عن نفسه من خلال الرجال والمجتمعات .أنا لا أدين . لا أعرف ماذا سينتج عن الامبراطوريات الاستعمارية القديمة ، لا أعرف ما يكونون قد حملوا من خير . ولكننى أعرف ما جلبوا من شر. ربما جلبوا معهم بعض الخير أيضا . إنما كل هذا متشابك جداً لدرجة أننى لن أكون راضيا عن أى نظام سياسى كيفما كان.

*** هل هذه هى الفوضوية؟.**

* ليس الأمر كذلك فى الغالب .ها أنت ترى. لقد اتخذت موقفا . لم أبق غير مكترث .عندما كنت فى ميترى (سجن) أرسلت إلى سوريا. وكان الرجل القائم على سوريا آنذاك هو الجنرال غورو، ذلك الذى لا يملك سوى يد. كان قد قصف دمشق . وبما أننى كنت أعرف قليلا من العربية ،فقد كنت أخرج من الحى العسكرى فى الرابعة وأعود وقتما شئت.والأطفال كانوا يجدون لذة كبرى وهم ينقلوننى بين الخرائب التى تركتها مدافع الجنرال غورو.فى النهاية ،كانت عندى رؤية مضاعفة عن البطل والوغد الذى كان غورو(..).

*** كيف تفسر أنه بدل أن تكتب بالعامية أو تخترع لغة، استعملت لغة العدو، يعني اللغة الجميلة ، لغة السلطة ، ستكون في النهاية كتبت لغة الجنرال غورو؟.**

* لست متأكداً من أن غورو كتب لغتي ولكنك على حق، كان على أن أفتن هؤلاء الذين تتحدث عنهم ، هؤلاء الذين تنتمي إليهم بدون شك، الانتليجنسيا الفرنسية.

*** سؤال : هناك مجازفة عندما نكتب مثلما يكتب جان جينيه . يقول الجلادون : «إنه ليس خطيرا ، فهو يكتب بشكل جيدا جدا» الاستقطاب عن طريق الجمال ! هل يمكن أن نقارن الطريقة التي توظفون بها لغة «الجلاد» بالكيفية التي تمسك بها الخادمات لباس السيدة (مسرحية الخادمات) ،أم أن الأمر أكثر طبيعية لديك؟ هل تخضع في قراراتك ، وأنت تعانق موسيقى وجمال اللغة هذه لاستراتيجية ما أم لغريزة؟.**

* أود أن أجيب أنها استراتيجية ، ولكن رغم كل شئ ،فقبل أن أذهب إلى ميترى ، كنت في المدرسة وتعلمت الفرنسية على أية حال.

*** هل تقرأ الأشياء التي ظهرت حديثا عن طيب خاطر؟.**

* أخر كتاب حاولت قراءته كان لريموند أبيليو ولكنه بدا لي غامضا ومكتوبا بطريقة سيئة جدا.

*** قلت إن رامبوا «اختار» الصمت .هل اخترته أنت أيضا؟.**

* لا أعرف السبب الذي من أجله اختار رامبو الصمت، قلت إنه فهم أن عليه أن يصمت .أما أنا فيبدو لي أنني كتبت ما كتبت من أجل الخروج من السجن ، ما دمت أنجزت كل كتبي في السجن .وعندما خرجت لم يعد لوجود الكتابة معنى .كتبي أخرجتني من الحبس.ماذا أقول بعد ذلك؟.

*** هناك جزء منك ما يزال في السجن؟.**

لا. لا. أي جزء مني

على الأقل ذكرى أولئك الذين ماتوا هناك ، أو ما يزالون هناك لحد الآن؟.

* لا يبقى جزء مني بدرجة أكبر في البلدان التي استنزفها الفرنسيون كالمغرب ومالي .. وآخرين.

*** لم تواتك فكرة أن تكتب من أجل أن يخرجوا هم أيضا من السجن؟.**

* لا أكرر لك أن إلغاء الإعدام لم يحرك فيّ شيئا .أنا لا أقول بوضع الناس في السجون .إنما القضية تبقى بينهم وبين القضاة، والحكومة .. إلخ ،وليس بينهم وبيني.

*** كثيرون نحن الذين نأسف لهذا الصمت .**

* سوف تشفون.

*** لنعد إلى اختيارك للغة الكلاسيكية لماذا ؟.**

أشياء بتلك الخصوصية وتلك الفرادة لم أكن لأقولها سوى بلغة تفهمها الطبقة المسيطرة .كان على أولئك الذين أسميهم « جلاديي » أن يسمعوني . إذن على أن أعتدى عليهم في لغتهم .

*** ما تقوله « للجلادين » لا يمكن احتماله.**

* الجلادون الحقيقون لا يقرءونني في الحقيقة.

*** ولكنهم يهابونك . يعرفون أنك موجود.**

* لا يهمهم . لا يهمهم ذلك. لا يجب أن نعطي لهذا كل هذه الأهمية . لا يجب المبالغة في تقدير ذلك.

*** هل يمكن إعطاء مثال عن اختيارك النحوي؟.**

* تبدأ الجملة الأولى من أول كتاب كتبت هكذا : « فيدمان بدا لكم » وطلب مني المصحح المطبعي أن أصححها بتبديل « كم » ب« نا » قال لي : إن المقصود هو « فيدمان بدا لنا » أليس كذلك ؟ ولكنني أصررت على الاحتفاظ ب« بدا لكم » لأنني بدأت إذ ذاك أسجل الاختلاف بينكم أنتم الذين أتكلم إليكم وبيني أنا الذي أكلمكم.

*** بدأت تبعد نفسك ؟.**

* بدأت أبعد نفسي ، ولكن مع مراعاة القواعد، قواعدكم.

*** لم تسن أبدا قواعد أنت بنفسك ؟.**

* أعتقد في النهاية أنني طيلة حياتي كنت ضد، ضد القواعد البيضاء.

*** ماذا تقصد بكلمة بيضاء ؟.**

* قواعد البيض .أريد أن أقول إنني حتى الآن . وقد بلغت ٧٢ عاما ، ليس لي حق الانتخاب ، ولو أنك تعتقد أن هذا قليل الشأن. أنا لا أنتمي إلى المواطنين الفرنسيين.



*** لا تملك حقوقك المدنية؟.**

* لا .. لا ،.هناك جنح ارتكبتها لم يعف عنها أبدا من بينها سرقة ،وحكم بالسجن لمدة سنتين وأشياء أخرى. ثم إنني هربت من التجنيد مرتين.

*** هل أحصيت مجموع الاحكام التى صدرت ضدك ومدتها؟.**

* نعم ١٤ سنة.

*** تكلمت كثيرا عن هرمية المجد ،والتى قد تكون هرمية الجريمة ..ما هى الجريمة الأكثر شاعرية؟.**

* لم أقل هذا . أردت أن أقول إنه إذا ما وضعت كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً ..جنبا إلى جنب ،فمن الممكن أن تكون أكثر شاعرية من جريمة قتل . إذا كان لى أن أختار بين التعبير الشاعرى بواسطة الكلمات أو التعبير الشاعرى بأفعال -إذا ما وجد- فإنى سأختار التعبير الشاعرى بواسطة الكلام.

*** هل هناك سعادة فى الكتابة ؟ هل سبق لك، وأنت تكتب ، أن أحسست بابتهاج عميق؟.**

مرة واحدة.

*** ماذا كنت تكتب؟.**

* الحواجز (مسرحية) وما تبقى كان مملا جدا. إنما كان على أن أكتب حتى أخرج من السجن.

***. فى أى سن كتبت الحواجز؟.**

* انتظر . أعتقد أنها سنة١٩٥٦ أو ١٩٥٧ .على أى حال ، كنت أصحح البروفات عندما وصل ديغول إلى الحكم سنة ١٩٥٨ ،أعتقد ، نعم ،هو ذاك.

*** أذكر العروض فى مسرح الأوديون كان هناك صف من الشرطة يحرس المسرح .ما هو الأثر الذى خلفه لديك أن تلعب فى مسرح وطنى يحرسه البوليس؟.**

* كيفما كان الحال فهو إحساس بأن البوليس غير منسجم مع نفسه ، وكذلك الحكومة الفرنسية.

*** وقد أطربك عدم الانسجام هذا؟.**

* لاحظت هذا قبل ذلك بكثير.

*** ولكن أن تجد الفرصة لايقاعها فى الشرك مرة أخرى شئ كهذا يبدو**

بالاحرى ممتعا ؟.

* نعم وودت لو أعيد الكرة مع ماريا كازاريس فى الكوميديا الفرنسية التى طلبت منى الشرفة (مسرحية) . ولكننى لم أستطع أن أقوم بهذا . لم يكونوا يرغبون فى كازاريس . إذن فهى أكثر خطورة منى.

*** مسرحية الحواجز تقدم الموت كشئ غير رهيب فى النهاية وليست له أهمية كبرى .هل هذا رأيك؟.**

* إنه رأى مالارميه أيضا : «هذا الغدير القليل العميق ..» تعرف البقية ، يبدو لى الموت ...على أى المرور من الحياة إلى اللاحياة ليس بتلك الدرجة من الحزن ، قليل الخطورة بالنسبة للشخص عندما يغير العبارات العبور من حياة إلى لا حياة بدل من حياة إلى موت . يبدو الأمر دفعة واحدة مغريا تقريبا أليس كذلك.؟.

تغيير العبارات هو المهم . تهوين المأساة Dédramatiser .العبارة مستعملة حاليا على نطاق واسع . تهوين الموقف . أهون من الموقف الذى سيجعل منى ميتا باستخدام كلمات أخرى

*** مؤلف درامي يهون من الدراما ؟ مؤلف مأساوى يهون من المأساة؟.**

* تماما . إذا كنت حاولت أن أنجز شكلا مسرحيا ما فذلك لأصفى حساباتى مع المجتمع .الآن لم يعد يهمنى . صفيت الحسابات.

*** لست غاضبا؟ لا مأساة لك؟.**

* إنى أؤكد هذا بشكل حاسم ، بشكل متأصل لدرجة أننى أتساءل هل الأمر حقيقة لاغضب فيه ولا مأساة .هنا وضعت اصبعك على شئ ما .أعتقد أننى سأموت وأنا غاضب عليكم.

***والحقد؟.**

* لا أتمنى ألا يكون الأمر كذلك ؟ أنتم لا تستأهلون حقدى؟.

*** ومن الذى يستأهله؟.**

* الأشخاص القلائل الذين أحبهم بشكل عميق ،والذين أشفق عليهم.

*** حدث لك مع ذلك أن أحببت أوغادا؟.**

* أنا لا.أضع نفس التفرقة التى يضعها سارتر بين الأوغاد والآخرين . وبما أننى عاجز عن تعريف الجمال ،أجد نفسى عاجزا وبشكل مطلق عن تعريف

الحب ومعرفة .. الرجل الذى ،تحت نظرتك الموضوعية ،قد تسميه وغدا ، يصبح غير ذلك تحت نظرتى الذاتية.. انظر عندما أعطى هتلر للفرنسيين « طريحة » نعم. كنت سعيدا .كنت سعيدا لهذه الطريحة ..لقد كان الفرنسيون جبناء.

***وما كان يفعله هتلر فى معسكرات الإبادة ،هل هو طريف أيضا؟.**

أولا لم أكن أعرف حقيقة الأمر . أؤكد لك، ولكن الأمر يتعلق بفرنسا ،وليس بالشعب الألمانى أو الشعب اليهودى أو الشعوب الشيوعية التى قد يكون هتلر ذبحها . يتعلق الأمر بالتأديب الذى لقنه الجيش الالمانى للجيش الفرنسى.

***وهذا بدا لك مسليا؟.**

* مسل جدا، أؤكد لك.

*** والطريحة التى تلقاها هتلر بعد ذلك ، هل أمتعتك هى الأخرى؟.**

* كنت قد أصبحت لا مباليا آنذاك. كان الفرنسيون قد بدأوا تصرفهم المخزى فى الهند الصينية ،فى الجزائر وفى مدغشقر .. إلخ ، أنت أيضا تعرف القصة خيرا منى.

*** فى المجمل ، أنت لا تنتمى إلى أى وطن؟.**

* لا بالطبع .

*** إذا كان عليكم أن تضعوا تعريفا للوطن ماذا سيكون؟.**

* لقد فعلتها مرة فى جريدة «الإنسانية» وأنا أمزح . طلبت منى الجريدة أن أكتب نصا . الوطن بالنسبة لى ثلاثة أو أربعة أشخاص .كنت انتمنيت إلى وطن لو أنى أحارب . وأنا لا رغبة لى فى أن أحارب لا من أجل الفرنسيين ولا من أجل أياً كان . ولا حتى من أجل الفهود السود. لم يكن الفهود السود ليحبذو أن أحارب من أجلهم.

*** غالبا ما تكون الحروب حروبا أيديولوجية ، رمزية، والفنان واجد فيها بالتالى مكانه . ألم تشعر أبدا بأنك تحارب بالقلم؟.**

* أنت تتكلم كسيمون دى بوفوار.

***ألا يحارب الشخص بالقلم؟.**

* لا. شاركت بالطبع فى مظاهرات مع سارتر، مع فوكو، ولكن لم يكن

لذلك أية قيمة مع شرطة محترمة جدا . .كانت هذه الشرطة تؤسس تواطؤ معنا جعلتنا شركاءها فى التواطؤاً . شرطة سريالية.

*** وإذن يكتب المرء ليخرج من السجن ، ولكنه لا يغير العالم؟.**

* لست أنا على أى حال . لا.

*** وهل يتغير الآخرون بشكل فردى ؟ هل يتغير القارئ ؟ هل هناك كتب غيرتك؟.**

* لا. فى النهاية .أعتقد ، دون الادلاء بحجج ، أعتقد أن هناك عاملا ذاتيا لا أستطيع أن أجد له تسمية أخرى يتعارض مع التربية التى تأتى من الكتب .ومن اللوحات أو من أشياء أخرى، أى مع التربية التى نتلقى .أنا عاجز عن تبين الحدود . ولكن كل إنسان يصنع غذاءه من كل شئ . إنه لا يتغير من جراء قراءة كتاب أو مشاهدة لوحة أو من جراء موسيقى .إنه يتغير شيئا فشيئا ،ومن كل هذا يصنع شيئا يوافقه.

*** وإذا ما قال لك« جلاد » أن قراءة جان جينيه قد غيرته ، وأنه صنع منها غذاءه؟**

* إذا ما حدث شئ كهذا فسأطلب منه أدلة .

*** أية أدلة؟.**

* عليه هو أن يدلى بها ؟.

*** بواسطة أفعال؟.**

*لا أعلم . لا أعتقد أن ما كتبت يمكن أن يبدل الإنسان . يستطيع أن يكره ما كتبت ، أو أن يؤيده .على أى فالجلاد ليس جلادا تماما . أنت الذى تكلمنى الآن ، فيك جزء من المتهم ، لا أستطيع أن أتبينه بشكل واضح، إنما هذا راجع لكونك لم تضع قدمك أبدا فى الجهة الأخرى .

*** ولكن أنظر كم تغير سارتر بسببك؟.**

* لا.

*** أعتقد أن الأمر كذلك؟.**

* لا . لا.

*** أنا متأكد .على أى، لقد تغير بسبب ما كتب عنك .هل تغيرت أنت أيضا بسبب ما كتب؟.**

* أنا لم أقرأ كل ما كتبه سارتر، قراءته مملة.

*** بغض النظر عن هزيمة ١٩٤٠ ، هل هناك أحداث أخرى انشرحت لها بنفس القدر؟.**

* نعم كان هناك تصرف الجزائريين والفيتناميين الشماليين الرائع فى مواجهة الفرنسيين والأمريكيين بالطبع.

*** تضع فى نفس المستوى هزيمة هؤلاء وبطولة أولئك؟.**

* ليس فى نفس المستوى تماما. لقد استطاع الفيتناميون الشماليون ،ليس بفضل ذكائهم فحسب، وإنما بسبب تلك الأشياء الرائعة التى اخترعوها،وأشياء أخرى ، استطاعوا أن يجبروا سفير سايغون على أن يحمل علمه تحت إبطه ويرحل .أليس هذا أمرا مضحكاً؟.

*** يبدو أن اليساريين الفرنسيين القدامى قد اختاروا اللاعنف .كيف كنت ستتصرف لو كان الأمر غير هذا، لو سار الإرهاب كما هو الشأن مع الألوية الحمراء؟.**

* منذ قليل قلت لك سنى. لن أصلح لشئ كبير ،ما دمت ضعيف البصر، ولكننى بكل تأكيد سأكون بجانبهم.

*** حتى ولو أدى هذا إلى وصول دولة أكثر قمعاً؟.**

* ستكون قمعية ضد من؟ ضد شرذمة من البيض لم يحرجها فى شئ ممارسة القمع سواء فى الجزائر أو المغرب أو أى مكان آخر..

*** بعبارة أخرى منطقكم كالتالى : لا يهم أن تسوم الدول البيض بعضها ما سامته لغيرها؟.**

* بشكل من الأشكال. بل أقول : كذلك أحسن.

*** لا تبتسم أبداً بهذا الشكل الا عندما تصف مصيبة ما..**

* مصيبة من؟ ليست مصائب البؤساء هى التى ستجعلنى أبتسم.

***ولكنك تعرف جيدا أن دولة عندما تتقوى فإن أول من يتكبد الخسارة هم الفقراء.**

* الفرنسيون ليسوا فقراء .الفقير الحقيقى فى فرنسا هو العامل المهاجر .الفرنسيون ليسوا فقراء. إنهم يتمتعون بامتياز كون فرنسا كانت امبراطورية استعمارية.

*** على أية حال هناك خمسة ملايين فرنسي يتقاضون أقل من ٣٠٠٠ فرنك، هذا كثير.**

* لا ليس بالقدر الذى تتصور بالنسبة لـ٥٣ مليوناً.

*** ليس هناك فقراء فى فرنسا؟.**

* فيما يخص الفرنسيين ،نسبياً أقل من مكان آخر، ربما ليس أقل من ألمانيا الغربية أو السويد ، ولكن أقل من أمريكا حيث حيث هناك فى بعض غيتوات السود بؤس رهيب.

*** أنت تضع تمييزا نهائيا بين بؤس البيض وبؤس الآخرين.**

* لست أنا الذى يضع التمييز.

*** المسألة تبدو لك أقل جورا عندما يتعلق الأمر بالبيض ، لا تحرك شعورك؟.**

* يعنى أن السود لحد الساعة لم يمسونى بسوء.

*** كما لو أن الأمر ليس خطيرا بالنسبة لك إذا ما استعبد الأبيض.**

-تماما.

*** أن أكون أبيض فهذه تهمة ؟ نوع من الخطيئة الأولى.؟.**

* لا أعتقد أن الأمر يتعلق بالخطيئة الأولى .ليست تلك الخطيئة التى يتحدث عنها الانجيل لا. إنها خطيئة مقصودة.

*** على ما أعتقد لم تكن ترغب فى أن تكون أبيض؟.**

* كونى ولدت أبيض وتصرفت ضد البيض،فأنا بهذا المعنى لعبت على كل الواجهات فى نفس الآن . أنتشى عندما يتألم البيض وأنا محمى من طرف السلطة البيضاء ،ما دام جلدى أبيض ولى عينان زرقاوان..

*** أنت فى الجانبين معا؟.**

* نعم ، فى الجانبين معا.

***وضعية تعجبك؟.**

* على أى فإنها وضعية سمحت لى بأن أجلب الفوضى داخلى أنا نفسى.

*** هناك مسرحية اسمها الزنوج تحكى هذه الأشياء بشكل جيد.**

* نعم ، ربما.

*** تتحدث عن الجمال أحيانا ، جمال شخص، جمال وجه ،ما هو الجمال**

بشكل عام؟.

* ليست هناك علاقة بين جمال وجه أو جسد وبين بيت من شعر راسين بالطبع . إذا ما أشع وجه وجسد بالنسبة لي فربما لا يحدث نفس الشئ بالنسبة لآخرين.

*** لكل جماله إذن ، سواء بالنسبة لراسين أو بالنسبة للوجه؟ ليس لك تعريف للجمال؟.**

* لا . ولكن هل لديك مثل هذا التعريف يهمني أن أعرف ذلك.

*** لا. جمال جينيه هو المهم . إذا ما قيل لك إن وجهه يشع ببراءة عارمة ، هل يحرجك هذا؟.**

* لا.

*** هل يجعلك هذا راضيا عن نفسك؟.**

* نعم إلى حد ما . لأننا أصبحنا نعرف الآن أن الأبرياء شيطانيون.

*** نجد لذة في أن تحمل وجه البراءة . وتكون عالما أنك شيطاني؟.**

* أنا لا أملك وجها بريئا.عندما تقول لي إنني أملك هذا الوجه،فالأمر كذلك، وإذا فكرت أنني لا أملكه فإنني لا أملكه. ولكنني أحس بمتعة أكبر إذا ما قلت لي إنني أملك هذا الوجه وإنك تفكر بأن الأمر كذلك.

ذكرى

جاتكو فضيحة يا طبقة سطحية:

الذكرى الخامسة لمغنى الشعب: الشيخ إمام

أشرف الصباغ

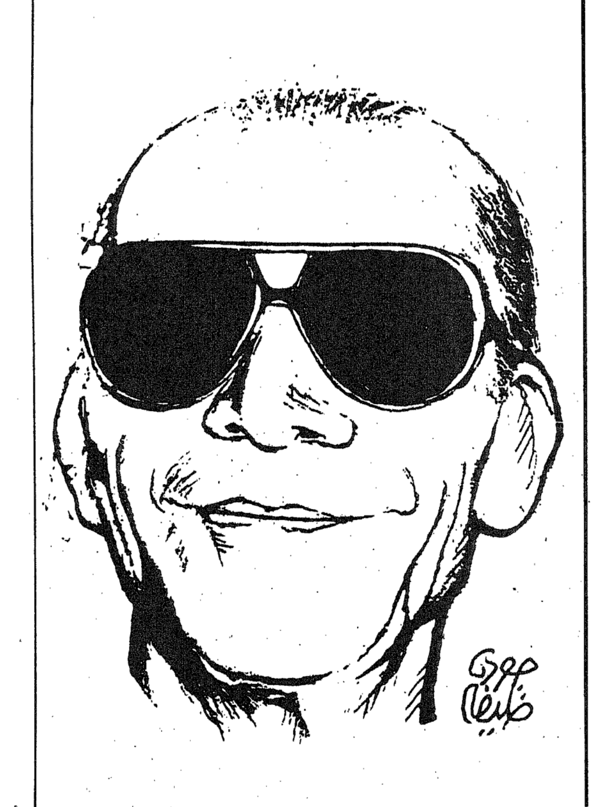
فى العدد(١٥٥) لشهر يوليو ١٩٩٨ م من مجلة « أدب ونقد » نشرت مقالا عن الذكرى الثمانين لميلاد إمام عيسى .وفى العدد(١٩) لشهر يونيو ١٩٩٨ م من مجلة «سطور » نشرت حوارا كنت قد أجريته معه عام ١٩٨٧ م بعد عودته من رحلته إلى الخارج . وقامت مجلة« القاهرة » فى عددها(١٥٣) لشهر أغسطس ١٩٩٥ م بنشر ملف كامل (٧٠ صفحة) عن الشيخ إمام جمعت فيه قدرا ضخما من المقالات التى كتبت عن هذا الفنان منذ عام ١٩٦٨ م،إضافة إلى المقالات التى كانت قد كتبت فى وقتها. ولعل« أدب ونقد » قد نشرت العديد من الموضوعات المهمة عن إمام عيسى قبل رحيله وبعده ، هذا طبعاً إلى جوار ما نشرته مجلة« الكواكب» من مذكرات الشيخ إمام ، ثم عادت « أدب ونقد » لتنشر الفصل الممنوع من هذه المذكرات . ومع ذلك فحتى الآن لم نر بعد كتابا يجمع ما كتب عن إمام عيسى وبالصور (حتى ولو فى سلسلة كتاب « الأهالى »).

خلال هذه الفترة(١٩٩٦- ٢٠٠٠م) وأثناء الزيارات الخاطفة إلى القاهرة ،كان الحديث يدور ويتجدد بينى وبين العديد من المعارف والأصدقاء فى كل

مرة عن الشيخ إمام، وعن فنه،وعن حياته بشكل عام. واكتشفت تدريجيا ، خلال هذه السنوات الأربع ، أن هناك إزاحات ما تحدث فى وجهات نظر أولئك الأصدقاء والمعارف «المثقفين» فبعد أن كان الكثيرون منهم يلازمونه ويزورونه ويأكلون «عيش» من الكتابة عنه وإجراء الحوارات معه ، بعد أن كان الكثيرون يعتبرونه أحد أمجاد فن الموسيقى المصرية والعربية ،ومغنى الشعب ، ورفيق البسطاء ولسان حالهم ، وأحد أهم مفجرى النغمة الشعبية المصرية، وأحد أهم المغنين الذين تمكنوا بحرفية عالية من تلحين الكلام وغنائه ، بدأت الآراء «تنزاح» تدريجيا إلى أنه «راجل على باب الله» ومجرد مغن ضرير «حدفته» الظروف إياها فى الطريق إياه . ورغم أننى لا أبرر كل هذه الإزاحات ، إلا أننى أعرف دوافعها وأسبابها وبواعثها والظروف المحيطة بها من جانب المثقفين بشكل عام، والمثقفين الذين رافقوه أو تعاطفوا معه على وجه الخصوص ومع ما يطرحه من رؤية فنية عامة وشاملة . ولكن الأمر الذى سبب لى ألما شديدا وحزنا وتوترا إلى درجة مرضية وصلت إلى حد« القرف» هو إعلان أحد المطربين فى لقاء خاص عابر أن الشيخ إمام مجرد مغن ضرير ساعدته ظروف ما فلعب على أحزان المثقفين وعاش و«استرزق» على قفا» السياسة، وأنه -أى هذا المطرب -قابله ذات مرة فى بداية التسعينيات ،على السلم ، فى مبنى الإذاعة والتلفزيون ،فسأله بسخرية عن سبب مجيئه إلى« هنا» فأجابه الشيخ إمام : أكل عيش»!.

***

منذ سنوات طويلة والعديد من المخلصين يطالبون بجمع وتحقيق التراث الموسيقى والغنائى لإمام عيسى . وقامت العديد من المجموعات الشبابية بتكوين فرق فنية لإحياء هذا التراث والحفاظ عليه- نسبيا- من الاندثار، ومنها على سبيل المثال فرقة «عفاريت الشيخ إمام» . هذا إلى جانب المحاولات الفردية لبعض الفنانين الشبان لإحياء بعض ألحانه وأغانيه ،والفيلم



التسجيلى الذى أعده المخرج سميح منسى بعنوان « الشيخ يغنى » . ويبدو أن كل هذه المحاولات لم تستثمر وبالتالى لم يتحقق المراد منها بشكل كامل لسبب أو لآخر ، أو لأسباب كثيرة . وطبعا فمحور المسرح خال تماما من محاولات بعث وإحياء أعمال إمام عيسى الفنية . وأقصد بذلك أن هناك تجاهلاً بدرجات متفاوتة وابتعاداً عن استخدام أعمال إمام عيسى فى الأعمال المسرحية. ولعل مهرجان القاهرة العالمى للمسرح التجريبى هو أحد أهم الأشكال التى يمكن أن يشارك فيها فنانون مسرحيون بأعمال يتم فيها استخدام موسيقى إمام عيسى وأغانيه ، بل ويمكن إعداد نصوص مسرحية « مونودراما » ليس بالضبط عن إمام عيسى (مع أنه ليس هناك ما يمنع من ذلك) وإنما عن استلهام مثل هذا النمط وإبراز الجوانب الإنسانية / الفنية / التاريخية فيه وفى فنه . والأمر لا يقتصر فقط على المهرجانات وإن كانت حتى عالمية ،فتجارب مسرحية مهمة مثل تجارب المخرج أحمد إسماعيل يمكنها أن تستوعب مثل هذا الجانب الفنى الشعبى من الموسيقى والغناء خاصة أن أحمد اسماعيل ما زال مصمما على الاستمرار فى تجاربه فى القرى والنجوع وبين البسطاء بل وحتى فى المسرح القومى على حد سواء . أى أن تجارب هذا المخرج تسير بشكل متواصل ومتنوع وبدأب شديد دون النظر إلى المهرجانات والجوائز ،لأن الهم الأساسى لديه ، الذى يظهر من خلال مسيرته الفنية الطويلة، هو عمل مسرح مصرى شعبى حقيقى له علاقة بأكبر قدر من الناس ، خاصة الذين لا يمكنهم أن يرتفعوا! إلى مستوى المسرح القومى أو مسرح السلام أو مسرح « الهزار » ،من هنا بدأ أحمد إسماعيل مشواره الفنى بالذهاب إلى هؤلاء الناس فى قراهم ونجوعهم وحواريهم .فماذا لو بدأ أحمد إسماعيل التعامل مع تراث إمام عيسى وغيره من فنانى مصر الحقيقيين فى إطار مشروعه المسرحى؟.

وهكذا ،فقد كنت قد نويت الكتابة عن الشيخ إمام وعن فنه فى الذكرى

الخامسة لوفاته تماشيا مع السائد : الكتابة عن الراحلين ليس فى ذكرى ميلادهم ، وإنما كما جرى العرف عندنا فى ذكرى وفاتهم! أقول نويت الكتابة مرة أخرى عن فن إمام عيسى وحيويته واحتياج البسطاء إليه ليس فقط فى فترات المد الشعبى والظروف السياسية والاقتصادية السيئة (كما يدعى البعض) ، وإنما أيضا فى كل الفترات والأوقات والظروف. ولكن حدث أن أعدت التفكير فى شكل الموضوع وفى مضمونه أيضا عندما «شرفتنى» اللحظة الاجتماعية- الاقتصادية- التاريخية بافتتاح مجمعات «سينسبرى» (أثناء وجودى فى القاهرة فى مارس- فبراير ٢٠٠٠م) ، ثم الأخبار التى توالت بعد ذلك عن إنشاء شركة باسم « مصريتنا » بأيدى عدد كبير من « التجار » المصريين الذين تضررت « تجارتهم» بالدرجة الأولى وربما الوحيدة من قسوة المواجهة مع « أدوات العولمة المتوحشة ».

هنا طرحت على نفسى مجموعة من الأسئلة التى بدت ، كما ستبدو لغيرى ، ساذجة : لماذا صرحوا بطباعة الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر أحمد فؤاد نجم التى تمثل قدرا كبيرا من المادة الغنائية للشيخ إمام ؟! كيف تلقى العديد من قصائد نجم فى الحفلات والمهرجانات الحكومية فى مصر والدول العربية والخليجية ،وهى القصائد التى كانت أحد أسباب اعتقال نجم وإمام معا وفرارهما الدائم، على الرغم من أن القوانين لم تتغير لأن الدستور ببساطة لم يتغير؟ !هل فعلا كانت ألحان وأغانى إمام عيسى مؤقتة ولحظية وصالحة فقط لـ « الجو » السياسى فى نهاية الستينيات والسبعينيات والثمانينيات ؟! إذن لماذا لم يصرحوا بإذاعة أغانى إمام عيسى فى الاذاعة مثلما صرحوا بإلقاء قصائد نجم فى المهرجانات والاحتفالات العامة؟ هل أصبحت قصائد نجم مجرد« أنتيكات » يمكن الفرجة عليها ؟ إذن لماذا لا يعتبرون أن أغانى إمام، بالمرة« ، أنتيكات »أيضا ويذيعونها على الناس، وطبعا سنترك الحكم لهم- أى للناس -استنادا إلى مبادئ الديمقراطية

السعيدة والحرية العولمية الجديدة؟!.

***

لا يمكنني ادعاء القدرة على الإجابة عن هذه الأسئلة الصعبة . ولكن ما أعرفه أن« الجو » العام حاليا يعطى إمكانية لأن يصبح محمد عبد الوهاب أحمس الموسيقى العربية ، والسيد مكاوى ، بالقطع إخناتون الموسيقى الشعبية المصرية العربية ، وكاتب هذه السطور ،،مما لا شك فيه ، توت عنخ آمون موسيقى الربابة والأرغول فى نجع حمادى وشارع محمد على وميدان لاظوغلى . ناهيك عن أننا سوف نعجز ، حتما ،عن إيجاد أسماء مومياوات أخرى للعديد من عباقرة مصر الموسيقيين بداية من مصطفى الأخضر وعلى قفه وأحمد كبارة، ونهاية بحسن النشال وعبد الحفيظ السنهورى عبد الحق الشهير بسماره وأحيانا بأباظة . ويتضح فى النهاية أننا نعمل بتعمد ودأب وإصرار على تفريغ أبطال مصر التاريخيين وإلى جوارهم «حكام» مصر الفراعنة الأشاوس من مضامينهم وتحويلهم فعلا(عاطل مع باطل) إلى مومياوات للسياحة ، ثم نعود لنطلق أسماء هذه المومياوات السياحية على أحياء أو أموات من أجل تضليل القارئ والمستمع وتفريغ التجارب الفنيةوأصحابها من مضامينها الحقيقية.

وبما أن نسبة الأمية فى مصر تصل إلى ٦٨٪ (حسب الإحصائيات الحكومية الرسمية)! فمن الجائز تماما، ومن الضرورى ، أن تنتشر «الديمقراطية» الخاصة بنشر الكتب ومن ضمنها طبعا كتب «الشعر» الذى كان ممنوعا بالقانون وبغيره . بل يمكن أن يصل الأمر إلى إشاعة «الديمقراطية» و«الحرية» على مساحة أوسع لكى تلقى قصائد الشعر- التى كانت ممنوعة- على الملأ، لنكتشف أن هذا الملأ هو نفس الملأ الذى كان يتناقل هذه القصائد سرا فى زمن ما. إذن فلماذا يعتبرون الشعب قاصرا بالنسبة للديمقراطية فى جانبها السياسى؟ ولماذا لا تنسحب «الديمقراطية» السعيدة ، «الحرية»

السامقة على أغانى مثل أغانى إمام عيسى؟ هل لأن الـ٦٨٪ (ولعلنى أعتقد أنهم لا يقلون عن٨٠٪) سوف يفهمونها جيدا ، سوف يثبتون بذلك أنها صالحة حتي فى بداية القرن الحادى والعشرين خلافا لادعاءات البعض التى تحاول ترسيخ العكس؟.

إن أغانى إمام عيسى تتوجه إلى قاعدة جماهيرية عريضة، وتلتزم باستخدام لغة هذه القاعدة وثقافتها وأشكال تعبيرها ،وهذا ما يمنحها سحرها وأهميتها وخطورتها حتى فى عصور الديمقراطيات «الشماء» . وبالتالى نجد أنفسنا فعلا أمام فن شعبى حقيقى يرتكز على إيقاعات لحنية شعبية ومونولوجية ساخرة، بل حتى استطاع صاحب هذا الفن أن يستخدم إيقاع التلاوات القرآنية المختلفة لينسج منه إيقاعات لحنية نادرة فى الفن الموسيقى المصرى .هذا طبعا إلى جانب قدرة إمام عيسى على تأسيس أدائه الغنائى على عناصر أداء عريقة فى القدم مثل تنويمات الأطفال والموال الريفى والأهازيج المتنوعة للشارع والحارة والحقل والمصنع والميناء .ولعل هذه العناصر هى التى جعلت من فن إمام عيسى(الموسيقى والآداء) فناً غير تقليدى ،ومادة خاماً ضخمة جاهزة فى أية لحظة (أقصد لحظة التعامل الجدى معها) للتحول إلى أشكال أخرى أكثر تطورا ،فهذه العناصر ترتفع أحيانا إلى حالة التصاعد الدرامى الذى يرتكز فى الأساس على ما يسمى بالدراما الموسيقية ،فالكورال يتدخل فى الآداء بصورة حيوية ونشطة لا تكرر المعنى ولا تعيد اللازمة ، وإنما يقوم هذا الكورال بتركيب أدائى للمقطع أو المقاطع المهمة لتنشأ تلك التفاعلات ، إذا جاز التعبير ، الدرامية التى نتحدث عنها . أو تسير هذه العناصر فى اتجاه وجدانى مفعم بالحنان والحزن والشجن ،وهو مستوى روحى آخر استطاع إمام عيسى بحرفية عالية أن يجمع بينه وبين المستوى السابق فى مقطع واحد أحيانا وفى مقاطع متتالية فى أحيان أخرى مغيرا المقام الموسيقى لينتشل المستمع من حالات الاستغراق ، أو بالأحرى

الغرق!.

– إيه رأيكم دام عزمكم يا أنتيكات..

هذا الآداء الساخر المفعم بالروح المصرية البسيطة وبالعتاب واللوم والإدانة –هل اندثر ، واندثر معه مضمونه وأبعاده ؟! أم يعتبر أحد أهم وسائل التعبير الفني –الغنائي لخطاب المواطن المصري البسيط الموجه لكل أشكال القهر اليومي (ماديا وروحيا) من جانب «تجار الخردة» الذين أصبحوا طواغيت مال وأصحابهم السماسرة الكبار على حد سواء مع «سينسبري» وتجار البانجو والسلاح؟.

– جاتكو فضيحة
يا طبقة سطحية
وعاملة فضيحة
وجايبه العار.. قروانجيه.. وكتبنجيه .. وسمسارجيه .. وسمساردار..

الأمور واضحة تماما على المستوى الشعري ، وبالنسبة لمن يستطيع القراءة أو يهواها من نسبة ال٢٠٪ الذين يمكنهم القراءة بشكل عام في مصر(هذا طبعا إذا كانوا يقرأون جميعا الشعر) ولكن الآداء الموسيقي –الصوتي الساخر سيكون أوضح تماما إذا تمت إذاعة الأغنية على الملأ: الملأ الحقيقي الذي يبلغ ٦٠ مليون نفر في حاجة ماسة إلى معرفة العلاقة بين «تجارة الخردة» في منتصف السبعينيات وطواغيت المال! في نهاية التسعينيات الذين اجتمعوا لـ« عمل جمعية» من أجل مواجهة صاحبهم «سينسبري» وليس من أجل مساعدة هئ ..هئ .. مصريتهم!.

لقد تغير، مع الأسف الزمن – ولكن هذه هي سنة الحياة والتطور . وتغيرت المفاهيم ووجهات النظر، ولم يعد هناك إمكانية لتقسيم الناس كما كان يفعل بريخت في زمنه «نحن وهم» . ومع ذلك فبريخت كان على حق ، وهذا التقسيم صحيح إلى وقتنا هذا رغم ادعاءات التواصل بين الأنا والآخر محليا وعالميا والذي تم مسخ المفهوم الاجتماعي الحقيقي له– أي للتواصل– وطمس المغزى الاجتماعي له بدعوى انتهاء عصر الايديولوجيا!.

جرّ شكل

لابد أننى شيوعية

غادة نبيل

يفعلون كل مايجعلهم يقولون عنك شيوعى أو شيوعية.

أنت تمشى . لاترجم أحداً بالغيب . لاتريد دم أحد حتى وإن عبرت عن رغبتك المطمورة فى قتل أعدائك الشخصيين والأشرار فى هذا العالم من الإسرائيليين والصرب ، أو غيرهم من مرتكبى المذابح والفظائع ، لكنك تعرف أنك لو أتيحت لك الفرصة لن تقتل أحداً . تمشى وملء خلاياك قناعاتك بأن لاأحد من حقه قتل أحد أو اغتصابه أو العمل على تهديمه . ولاأحد - مهما تعرضت أنت للخديعة والخيانة - يستحق تلك القبائح بمن فيهم أنت . لاأحد من حقه أن يصادر رأياً ولو كان سباباً فى دينك يغضبك ولاحتى من يسب أهلى . لكن ربما لو أحد قتل أحداً من أهلى أفكر فى الانتقام .. ربما . شخص مايكتب مقالاً يحاسب عليه القانون فى أية دولة من دول العالم . يدعو لقتل أناس سماهم وقدم عناوينهم وأرقام هواتفهم وسب كل من فى الدولة . هو" المؤمن" وحده كفرّ نصف المجتمع فى أقل من ساعة جلس يكتب فيها مقالا . فماذا يحدث؟

يدعو المفتى ورئيس الوزارة إلى مشاركته فى الوقوف على مصطبة إيمانه مطالباً بتحويل من كفرهم إلى محاكمة عسكرية . وهو فى هذا يرهب

من يستعديهما تحرشاً وإعلاناً (لنا) وإشهاداً (عليهما) إذ يدعوهما إلى الاستقالة بولولة رخيصة إن لم يفعلا مايريد شخصه الغيور على الدين و" القيم" أن يفعلاه.

فماذا يحدث؟

نرى المشتومين ، المهددين في حياتهم ، المكفرين (بفتح الفاء) في عقيدتهم .. هم الذين يتم تحويلهم إلى نيابة أمن الدولة، بدلاً من أن تختصم الدولة مع الداعين إلى قتل الناس أو أن توفر الحراسة للمهدرة دماؤهم بعد صدور فتاوى وأحكام (هناك برنامج اذاعى أو تليفزيونى - لاأذكر - له هذا الاسم) " المعصومين" في حق عقائدهم . وفقط لأن المشتومين كانوا يقومون بوظيفتهم وفق رؤيتهم وفى أماكن عملهم.

ليس مجرد تفويض إلهى أن يستمر المرضى وغير المتحققين والراغبين في صور وأحاديث تليفزيونية فى التحرك النشط باتجاه تخريب وتهديم كل من يخالف أفكارهم . ولاأنا ممن يمكن أن يسعدها إغلاق جريدة أو تجميد نشاط حزب ما. وقلتها منذ سنوات فى إجابة على سؤال من الملحق الثقافي البريطانى أثناء إجراء مقابلة قبل الامتحان للتقدم إلى منحة دراسية فى بلده . تطرقنا إلى بعض الجرائد مثل " اللواء الاسلامى" وغيرها. وماقلته هو ماأقوله الآن. لامنع ولاحجب ولامصادرة لأى شئ أو فكر يختلف معى أو يعيب فيما أؤمن به.

وقلتها قبل وبعد قراءة رواية " آيات شيطانية" للروائى سلمان رشدى ، التى آذتنى شخصياً فى مشاعرى الدينية . فما بالنا وهناك فتاوى طالبت في وقت مابدم رشدى ويريدون الآن الفتك بناس ، وسموهم هم وأهلهم بالكفر والفجور؟..

لماذا تروغ الكلمات ؟ حزناً تريد أن تدفن نفسها أوقاتاً.

أنا ، التى لا أملك إلا الكلمة، ولاأقدس إلاها عندما تكون نزيهة . لاأريد أن

أكف عن أن أؤمن بأن كل ماقد يبقى لو تزعزع إيمانى بعدم استحقاق صاحبها للقتل مالم تكن نزيهة هو أن أغادر بلدى.

صممت أن لاأكتب عن " وليمة لأعشاب البحر" إلا بعد قراءتها . وفعلت . وهذا رغم إيمانى أننى ، مهما قرأت ، لن أخرج فى مظاهرة أطلب دم إنسان ولايمكن - مهما وجدت فى الكتاب - أن يتبدل هذا . ولايمكن كذلك أن أؤمن أنه ليس من حق غيرى أن يقرأها مثلما قرأتها.

المهاتما غاندى كان يقول " الله هو الديمقراطى الأعظم لأنه أعطانا حرية أن نؤمن به أو لانؤمن ". " بابو" الهندوسى كان يصدق هذا ويصلى كصوفى نذر نفسه للبحث عن الحقيقة مع المسلم ومع المسيحى بعيداً عن أهداف السياسة ، ولكنه - كما كان يقول - لم يجد نفسه إلا فى هندوسيته.

نفضت جريدتى نشر المقال القصير الذى كتبته بعنوان" نحن نرفض الوصاية " وكنت واثقة من اعتدال لهجته ثقتى المسبقة فى عدم النشر . منعه شخص لطالما طالبنى سراً بالكتابة عن شخص تربطه به علاقات استفادة ولاصلة له بالابداع حيث يتحدث عن عظمة الخمار وروائع حالة الإيمان وغير هذا.

ولطالما ..

نحن لسنا فقط مهددين فى إبداعنا وخيالنا - مثل حيدر حيدر - بل ممنوعون وممنوعات من ممارسة مهنتنا . ونعاقب بحرماننا من نشر رأينا فى صحفنا التى نتقاضى منها أجورنا . وهم يستحلون أن يعطوك أجراً على عمل أنت قمت به ، وهم صادروه . وفوق هذا حجبوا رأيك وكتابتك عن غيرهم ليصيبك وهن اللاجدوى أو لتبحث عن مكان آخر يتحمل رأيك .. فإن تصادف أنه جريدة يقولون عنها" شيوعية " فأنت ولاشك شيوعى.

أنا لم أدخل فى قلب أحد لأعرف من المؤمن ومن غير المؤمن . ثم أنى لاأريد أن أدخل فى قلب أحد فيما يتعلق بهكذا أمور . أنا أريد للاثنين، المؤمن

وغيره، أن يتكلما ويكتبا وينشرا مايكتبانه وأن يقرأ الجميع، وأن لايعرض ديواني الجديد- الذى بدأت أخط قصائده - على الأزهر ليقرر ماإذا كان صالحاً للنشر . ولاأريد للأزهر أن يقرر لى ماأقرأه ولا للفقهاء الذين مازالت محاكمنا تأخذ بشطحاتهم - على لاانسانية وعدم منطقية أو اسلامية الكثير من نتائج اجتهاداتهم - أن يحكموا حياتى.

ونعم عندما زرت لبنان وقامت هوجة ضد رئيس الوزراء رفيق الحريرى بسبب مشروع تقدم به لإقرار الزواج المدنى(وهو واقع فى لبنان إذ تتم العديد من الزيجات بين الطوائف المختلفة فى قبرص كما حُكى لى، ثم توثق فى لبنان) كنت مع الزواج المدنى بدلاً من الزواج الذى قد لايكون دينياً فى شئ وبالتالى اختلفت مع أبى عند المناقشة واختلفت مع صاحبة محل عجوز مسيحية واتفقت مع ابنتها السيدة الناضجة، وهذا رغم أننى لاأوافق لنفسى مثلاً على الزواج العرفى لكنى لاأنظر بأية إدانة أو تحقير إلى ممارسيه ولاأتخيل أن أقر منعه إطلاقاً بل العكس. واختلفت - أيضا - مع أبى.

ونعم. أستطيع أن أجلس مع من يشرب الخمور بأنواعها ولاأشرب، ولاأحب أن يفترض فىّ أحد أننى أستكين لتخلف موروث إن لم أشرب.

ونعم . لاأقبل أن أرتدى مايوه بيكينى لكنى أرتدى المايوه. لأننى أحب الماء وأحب أن أحسه بجسمى . ولاأحب أن ينظر إلى جسمى الغرباء . لاأستطيع - نفسياً - أن أرتدى الميكروجيب الذى ارتديته طوال مراهقتى الأولى أو أن أسمح لمن أحب بتقبيلى أمام الناس لكنى لاأراه إلا بينهم ولهذا يروننى . وعندما كنت أرى المحبين يتعانقون ويطيلون العناق والتقبيل فى الخارج كنت أدير وجهى حرجاً كطفلة أول الأمر ثم بعد أن كبرت كنت قد آمنت أن من الوقاحة أن انظر فأن أظل أراقبهم ليس من حقى على الاطلاق.

ونعم لاأقبل أن يفرض أحد على شيئا. قد أخرج فى مظاهرة لأطالب بحق طالبة فى ارتداء حجاب أو خمار أو غيره مع يقينى أنها لاتفعل المثل لو

اعتقلت لسبب يرتبط بقناعاتى أو كتابتى أو ممارستى لحريتى الشخصية كما أراها وأحددها. كيف لاأحلم لمصر بنظام تنفصل فيه السياسة عن الدين فلا يطالب أحد برأس أحد لأنه آسود أو لأنه مسيحى أو لأنه ملحد أو حتى لانه شاذ جنسياً.

لكنى أطالب فقط برأس من يتخابر مع جهة أجنبية ضد بلدى ويقبض ثمن ذلك.

أريد دولة لاألحظ فيها ذلك الدفء المفاجئ والابتسامات بين غرباء يركبون الميكروباص عندما ترى كل واحدة وشم الصليب على معصم الأخرى مثلما رأيت هذا الصباح وأصابنى حزن وغمة لأننا نبتسم لبعضنا فقط إذا كنا من نفس الدين.

أما تكفيهم كل تنازلات المؤمنين بالمجتمع المدنى فى كل المجالات ؟. فى الفن حيث سمعت بعض النحاتين يقولون لى أنهم توقفوا عن النحت لسنوات لشكهم أن يكون ذلك حراماً . وخضوع أجيال طلاب الفنون الجميلة لتجريم وجود " موديل" إنسانى آمامهم وأمامهن والتعرض للممثلات فى شرفهن لأنهن يفعلن تلك الأشياء على الشاشة فكيف ولماذا لانصدق أنهن يفعلنها وراء الشاشة؟".

دوماً من يطالب بالعلمانية يتكلم بصوت أجبر على الخفوت ومن موقف دفاعى لصق الحائط الذى يريدون أن يشقوه ليدخلوه فيه ويجصصوه عليه وعلى أفكاره.

هم عازمون على مواصلة جهادهم حتى الموت تقتيلاً وتذبيحاً لو تركوا . ونحن وهم نعرف المقصود بـ" هم" - هم كل من يرى فى القتل حلاً للاختلاف ليستطيع آن يسجد سجدته ثم ينام ليله مطمئناً لاستحقاقه الجنة . هم الذين يمنعون النساء فى إيران من الخروج دون حجاب أو يمنعونهن من الخروج آصلاً ولو للتعليم فى أفغانستان والذين يمنعونهن من السفر ولو للعلاج باسم

الزواج والشرع ،وهم قتلة فرج فوده وقتلة نصر حامد أبو زيد لأن مافعلوه به ومـاأرادوا فـعله واستـوجب حـراسـتـه فى سـيـارات مـصـفـحـة تنقله إلى الجامعة لمناقشة رسائل طلبته هو قتل، وهم من جعلوا شخصاً يرشق خنجراً فى عنق نجيب محفوظ، وهن اللواتى كدن يسحلن بعض الباحثات من على المنصة فى مؤتمر " مائة على كتاب قاسم أمين تحرير المرأة العربيـة" فى المجلس الأعلى للثقافة وهم من يديرون وجوههم من إثم رؤيتنا بجوارهم - بجوار طهرهم الذى لايريدون له تلويثاً فى المصاعد إذا كانوا جيرانا لنا وليس لمجرد غض النظر والحياء المحايد كما فأحدس حتى لتشعر أنك بلا ثياب .. ولكن لاأريد أن يجعلونى أتشبه بهم وأحدس وأفترض.. بالفعل أحتاج لمقاومة ذلك.

كل هذا وآلوف من أطفال الشوارع يشحذون وتنتهك طفولتهم عندنا ويوجد فى السجون الإسرائيلية نحو ٢٠٠ معتقل مصرى منذ عامين خلاف ألف وستمائة معتقل فلسطينى وعربي فى سجون إسرائيل غير معروف عنهم شيئاً وغير مسموح لأية هيئة دولية بالوصول إليهم ولامعروف متى سيخرجون ولاأهلهم يعلمون باعتقالهم ولاجنسياتهم معلنة. ثم يتظاهر البعض فى بلد يحرم التظاهر حتى فى صورته السلمية ليس للمطالبة باطلاق سراح المعتقلين العرب فى تلك السجون ولا للمزيد من الحرية أو لحقوقهم الأساسية . لا . إنهم يتظاهرون طلباً لدماء مواطنين يحزنهم كل ذلك التردى والمتاجرات والقمع والحرمان بكل صنوفه ويؤلمهم - بشكل خاص - النفاق.

ولأنـهم وضعوا تعريفاً للشيوعى حتى وإن لم يكن عضواً فى حزب أو خلية تنطبق معظم شروطه علىّ أجد نفسى مستوفاة للكثير مما أتمسك وأفخر به كانسانة، فلابد - بدون أن أدرى - أن أكون شيوعية.

جرّشكل

سـر الخسة !!

ماجد يوسف

* ما الذى جرى لنا أيها السادة ؟ .. ما هذا الذى يترى فى حياتنا كل يوم من حوادث ووقائع وبلاوى زرقا ، مذهلة فى بشاعتها .. ولم يعد كافيا - بالمرة- إحالتها إلى الشماعة المصرية التقليدية التى ناءت بإجمالها والمسماة (الإهمال).. فترك صاحب الأجهزة الإشعاعية لجزء مشع ضائع من جهازه (بفرض صدقة) دون الإبلاغ المسئول عنه فى حينه .. ليس مجرد إهمال ، وترك صاحب مصنع الاسكندرية الذى أصيب مصنعه(المكون من ستة أدوار) بحريق سابق، نال من متانته وأساساته دون ترميمه وتدعيمه ، بحيث إنه انهار فورا فوق رؤوس أبطال الدفاع المدنى الذين جاءوا لإنقاذ الناس والمصنع عند حريقه الثانى ..ليس مجرد إهمال ، والنادى .. أوصالة الألعاب ، أوما شابه ،فى الفندق الفلانى بالغردقة الذى انهار سقفه (لأنه لم يبن على المواصفات السليمة أصلا) فوق رأس بنت بريئة ، فقضى على حياتها فى الحال .. ليس مجرد إهمال ، ومحطات الترام- المجددة حديثا! -التى انهارت على رؤوس الناس فى الاسكندرية، وقتلت من قتلت من الأبرياء لغش المقاول ، وبيع المهندس المختص لضميره ، من أجل حفنة جنيهات .. ليس مجرد إهمال ، والولدان اللذان دفعا حياتهما لتكهرب حمام السباحة بسبب عمال بلهاء! وإدارة نادى نائمة على ودانها ، يعلن رئيسها بمنتهى البجاحة ، أنه لا علم له

بأى لحامات أو صيانات تجرى فى النادى!.. ليس مجرد إهمال ، وعدم وجود وسائل إسعاف أولية للحوادث فى النادى نفسه (وربما فى غيره من النوادى).. ليس مجرد إهمال ، ثم محاولة إنقاذ أحد الولدين الذى كان به بقية من حياة. واللف على مستشفيات المنطقة (الاستثمارية) ورفضها (جميعا) استقبال الولد، والتعجيل بإنقاذه (أولا) (قبل دفع الرسوم المقررة) حتى مات الولد فى جولة (الفصال) الحقيرة هذه .. إلخ ، كل هذا ليس مجرد(إهمال) يا سادة! .. وإنما هو ، وبكل المعانى ، درجة عالية ، وممتازة ، ومتفردة من(الخسة) التى أصبحت طابعا عاما، وملمحا يكاد يكون مصريا بحتا ، ووطنيا محضا للأسف الشديد!.

وفى كل هذه الحالات ، وهذه ليست مصادفة ، يغيب القانون تماما عن الموضوع.. يغيب القانون، والتفتيش ، والمتابعة الحكومية- عن وعلى مستخدمى الأجهزة المشعة، والمنوط بهم -هؤلاء المفتشون -التأكد من سلامة استخدام هذه الوسائل الخطرة والتى لابد منها فى نفس الوقت، وتأمينها لضمان أمن وسلامة المواطنين ، ومن المفروض ألاّ يسمح أصلا(للشركات من هذا النوع) بممارسة أعمالهم باستخدام هذه الوسائل ، إلا بعد التأكد التام من قيامها بإجراءات أمنية ، وإجراءات سلامة معينة ودقيقة وواجبة ، وإلا منعت وحرمت من الترخيص لها بذلك ، ما لم تستوف هذه الاجراءات!.

وأين القانون والرقابة والمتابعة من صاحب مصنع ، أصيب مصنعه بحريق سابق .. كيف يسمح له بمواصلة العمل وحركة العمال فى مصنعه (المكون من ستة طوابق) دون التأكد (القانونى والهندسى والفنى) من صلاحية المكان والمبنى وسلامته ومتانته بعد الحريق الأول! .. وكيف لا تعاينه لجنة هندسية وفنية مختصة (وغير مرتشية ، ولو أن هذا من الصعوبة بمكان!) لتحديد اللازم له ليشتمل على الحد الأدنى من الأمان والقوة والصلاحية لدوران دولاب العمل فى المصنع من جديد؟ .. وطبعا ، لأن مثل

هذا سيكلف صاحب المصنع قليلا أو كثيرا ، فمن المفهوم أنه لن يقوم به طواعية طبعا ، إذا ترك لضميره فحسب (والضمائر فى بلدنا الحر الآمن ميتة فى العادة ، خصوصا أمام شهوات المال ومغريات اكتنازه والضن به على أمن الآخرين!) ، وإلا لن يمنح الترخيص بإعادة التشغيل والإنتاج ، وساعتها كان سيهرع لعمل اللازم لأننا (نخاف مانختشيش) كما يقول المثل!.

وقل مثل ذلك عن هذه المستشفيات الاستثمارية / السياحية / الفندقية / الشرهة/ البشعة .. التى تثرى من دماء المصريين ، وأمراضهم ، وأدوائهم ، ولا تعرف الرحمة ،ولا الإنسانية إليها سبيلاً .. لابد أن تلزم وزارة الصحة هذه((السلخانات) (بقوة القانون) بمساعدة الناس وإنقاذهم إذ لزم الأمر ودعت الضرورة .. وإلا منعت عنها تصاريح العمل والممارسة .. تلزمهم باستقبال الحالات الحرجة ، وحالات الطوارئ ، فورا ، وبلا أى تردد ولا تسويف ، ما دامت الدقائق فى مثل هذه الحالات تفصل بين الحياة والموت، أولا .. إنقاذ الحالة .. هذا هو « الطب » أو الأصل فى الطب ، وهذا هو قسم أبقراط الذى يقسمه هؤلاء الأطباء الذين تحولوا -فى شرائح لا بأس بها منهم- إلى تجار ، ورجال أعمال ، وجامعى ثروات بأى طريقة ، وبتوع بيزنس ! .. أين الضمير ؟.. وأين هذا القسم الابقراطى ؟ .. الذى يسمح لملائكة الرحمة!! .. بأن يتركوا طفلا يموت! وفى مقدورهم إنقاذه ! وجاء أهله على (ملا وشهم) بلا نقود ، وبلا أستعداد مادى كاف لهؤلاء الزبانية ولا أقول الملائكة ، وفى رحلة تنقل الفتى المسكين من مستشفى استثمارى جشع ، يفقد الطفل البرئ حياته هدرا وطمعا ونذالة وخسة! ما هذه الخسة يا وزير الصحة ؟ .. وما هذه الخسة يا ناس ؟ .. لماذا تبلدنا إلى هذا الحد؟ .. لماذا فقدنا إنسانيتنا إلى هذه الدرجة؟ .. ألا يوجد شهم واحد .. طبيب .. أو ممرض .. أو ممرضة.. يتقدم لينقذ حياة الطفل رغم أنف صاحب المستشفى اللعين .. وينتصر لآدميته وإنسانيته ..

بدلا من أن يقف ضعيفا ، سلبيا متفرجا ،خائفا على القرشين اللى بياخدهم ، ويتحمل بدون أن يهتز له جفن - أن يشاهد طفلا يموت أمام عينيه ولا يحرك ساكنا ، ومن الممكن جدا- فى هذا البلد الذى يعاشر الإهمال ليل نهار - أن يكون ابنه ، أو ابنته فى نفس الموقف ، فى أى وقت، وفى كل وقت ، والأنكى أن الطفل الشهيد هو ابن لأحد الأطباء ؟.

جاء من نادى الأطباء ، يعنى حتى حق الزمالة فى المهنة لم يشفع له، ولم يفلح فى إنقاذه ! .. ما هذا ؟.. أين نحن؟.. وفى أى زمن نعيش ؟ وفى أى عصر نحيا ؟.. ما هذه الدرجة الفائقة من(الخسة) والنذالة ، والتى أصبحنا نمارسها عيانا جهارا .. ليلا نهارا بلا حياء ولا خجل .. وكل هذا من أجل الفلوس..

ملعون أبو الفلوس التى تقتل الحياة، والتى تزهق الشهامة ،والتى تدمر الإنسانية والتى تصرع الطفولة البريئة ،والتى تحول الإنسان إلى جملة أرقام صماء، وتشيئه فى مجرد رصيد فى البنك عليه أن يرتفع ويرتفع على جثث الأطفال ، وأجساد الناس ، ومآسى البشر ، وأمراض الشعب ، وآلام الأمة ..هل هؤلاء هم ملائكة الرحمة .. أم زبانية (اللحمة) الذين تحول البشر فى أعينهم إلى(بضاعة) للكسب الفاحش ، وسلعة ، للشراء الغاشم .. لا تهزهم أنفاس طفل يحتضر ، ولا تدفعهم صرخات أم مكلومة على صغيرها الذى يلفظ أنفاسه ..

ليفتح أحدهم- وبلا تفكير- غرفة العمليات لانقاذ طفل برئ بأى ثمن ..حتى لو كان الثمن فقده لوظيفته .. أو إغضابه للمتوحش صاحب المستشفى .. بل يتركه يموت تحت سمعه وبصره ببلادة وتحجر وجمود وصخرية لا تعرفها الحيوانات .. ببلاش وبلا أى ثمن .. أيها الأنذال .. السفلة ..الإخساء.. خسئتم جميعا .. وسيأتى اليوم الذى تدفعون فيه ثمن هذه الخسة كلكم.. أنتم الذين تمتصون دماء هذا الشعب .. وتثرون على حسابه ، وتعيشون فى ترابه

، وتكبرون برحابته وبين ظهرانيه .. وتتورمون بدمائه ، وتنتفخون بأمراضه التى تتسببون فيها بلحومكم الفاسدة ، وأغذيتكم الملوثة، ونفاياتكم القذرة التى تدفنوها فى أرضه وتقبضون الثمن الدنئ ، وبيئته التى تلوثونها.. وهرموناتكم التى تحقنون بها غذاءه وخضرواته لتحققوا المكاسب الهائلة فى وقت أسرع .. ثم فى النهاية تستكثرون عليه أن تنقذوا طفلا من أطفاله فى لحظة حرجة .. كان ثمن التردد فيها ، حياة الطفل البرئ!.. ستدفعون الثمن أيها القتلة، وما دام القانون الملزم والمنظم لكل ذلك غائبا ، فماذا نملك إلا أن نقول حسبنا الله ونعم الوكيل ،حسبنا الله فى المهندس الغشاش الذى بنى السقف المغشوش الذى قتل البنت البريئة فى الغردقة .. ولم يتابع- فنيا- من قبل لجنة مختصة، وللمقاول الحرامى ومهندسه الأفاق الذى بنى محطات الترام التى سقطت فوق رؤوس الناس فى الاسكندرية ، ورئيس النادى(المهمل) والعمال الجهلة البلهاء الذين يمدون أسلاك كهرباء فى وقت يعج فيه حمام السباحة بالأطفال ولوزارة الصحة التى تترك مافيا المستشفيات الخاصة ترتع فى مجتمعنا ، وتكسب من أجسادنا ، وتثرى من أمراضنا بفحش وجشع ، وتبخل علينا فى لحظة خاصة جدا تفرق بين الحياة والموت ، بمبادرة لانقاذ طفل ، ولو حتى على سبيل (أعمل الخير وارميه البحر) أو على سبيل الذكاة عن نفسها ومكاسبها ..هل رخصت الحياة عندنا إلى هذا الحد .. وإلى هذه الدرجة من الخسة والنذالة والتردى الخلقى البشع ..وهو ما يدفعنا إلى طرح السؤال / اللغز الذى لا إجابة واضحة له(فيما أظن) .. ما السر فى استشراء الخسة فى مجتمعنا المصرى إلى هذا الحد ؟!.

ما سر الخسة ياناس؟.



الرباط والمهرجان والشيخ إمام

نورا أمين

لا أعرف على وجه التحديد كيف سافرت أنا تحديداً إلى المغرب لحضور مهرجان الرباط الدولى ،والمشاركة فى ندوة ينظمها اتحاد كتاب المغرب حول «المرأةوالكتابة والمجتمع» ، لا أعرف كيف أنهيت إجراءات السفر فى زمن جهنمي بعد أن كنت قد أدركت إستحالة الوصول فى الوقت المحدد ، بدت لى رحلة المغرب رحلة مدهشة وغير متوقعة رحلة حملت فى جعبتها مفاجآت وتجارب على عكس رحلات نخطط لها وننتظرها لكننا نعود فارغى الوفاض منها ، كانت المغرب هى الرحلة البريئة من الترتيب والتنظيم الذهنى ، الرحلة إلى مدينة تفتح لك ذراعيها وتمنحك دون أن تطلب وتقترب إليك ،وتقربك من نفسك ومن وطنك أنت يا من رأيتها بعيدة وغائمة إن لم تكن غير مثيرة..

***

فى شهر أبريل الماضى تعرفت لأول مرة على المغرب الثقافى من خلال ملتقى الرواية المصرية- المغربية الذى أقامه المجلس الأعلى للثقافة ،حصلت على إصدارات أدبية ونقدية ، وسمعت مداخلات وشهادات من أدباء ونقاد مغاربة ،وشاركتهم فى مائدة مستديرة حول رواية الشباب هنا وهناك وتبادلت الآراء والحوار مع بعض منهم .كانت هذه هى معرفتى الأولى بالمغرب ، سبقتها انطباعات من نميمة حول سفريات البعض، وكيف أن المغرب غارق فى الطابع الغربى ، وكيف أن نساءه يرتدين ما يحلو لهن

ويتحدثن الفرنسية كأنهن خلعن «برقع الحيا» ،إلى جانب مشاهدات سينمائية كانت تركز على المغرب السياحى، على مراكش وطنجة ،فتصورت أنك أينما ذهبت سوف تجد ساحات بيضاء وحماما يرفرف حولك، وبيوتاً بيضاء صغيرة ، وفتيانا يشبهون أبطال الأفلام فى سراويل بيضاء هفهافة ،وبشرة سمراء لامعة وأنوف دقيقة . وبما أننى لم أجد أى أثر لتلك الانطباعات لدى أصدقائى المغاربة فى ملتقى الرواية ولا فى قراءاتهم ،فقد قررت أن ألقى بكل الأقاويل وراء ظهرى ، وأكتشف الأشياء بنفسى ،فعرفت أنه ليس هناك مغرب واحد، بل هناك عدة «مغارب» متعايشة معاً سويا ،كأنها تشكل قارة صغيرة تحوى تعدديات وتنوعات فى الأصول والثقافة واللهجة والتقاليد والعادات الاجتماعية ، وبالتالى فى أسلوب الحياة والمعمار ونمط الملبس والمأكل ،فى المغرب هناك أطلس الجبل بالقمم والسفوح ، حيث الحياة الجبلية والتجمعات الصغيرة والقبائل الصلبة التى تتحمل حياة السخونة فى الصيف والثلوج فى الشتاء ، وهناك المغرب الساحلى الذى يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلنطى ، هناك المغرب المتأثر بأسبانيا المواجهة له، وبجل طارق ،وهناك المغرب المتأثر بالاحتلال الفرنسى ، هناك المغرب شبه الدولى مثلما الحال فى طنجة ،وهناك المغرب التراثى ،وهناك المغرب القروى والبدوى حيث الصحراء تحتل مساحات شاسعة مثلما تحتل الخضرة مساحات شاسعة ، ويسود رعى الغنم والماشية ،وهناك المغرب العصرى فى الدار البيضاء حيث الإيقاع اللاهث للمدينة الغربية.

وهناك المغرب الثقافى الذى عشت فى داخله أسبوعين هذه المرة ، فوجدته رحبا وخصباً يتسع لاحتواء كل تلك «المغارب »، بل لاحتواء «المشارق» أيضا أو ثقافات الدول العربية الأخرى ، وأولها مصر التى كدت أشعر أن عشاقها المغاربة قد صنعوا منها وطنا مصغرا ودمجوه فى المغرب ، ليس فحسب بسبب العلاقات المصرية المغربية الفعالة على كل المستويات ، السياسية والثقافية والاجتماعية ،وليس فحسب بسبب التأثير الأسطورى للفن الغنائى والسينمائى تحديداً،حيث يحفظ المغاربة عن ظهر قلب مقاطع من الأفلام والأغنيات المصرية التى شكلت وعيهم وقربتهم إلى اللهجة المصرية

،وجعلت الجميع فى الشارع يتعامل مع المصرى كأنه ضيف عائلى يجب إكرامه بطريقة خاصة ، بل بسبب ذلك المجهود الذى قام به مثقفو المغرب لتقريب المجتمع المصرى للقارئ سواء من خلال نصوص أدبية وروائية (على رأسها رواية محمد برادة مثل صيف لن يتكرر) أم من خلال نقد الأعمال المصرية ،والنشر لمبدعين مصريين مثل سعيد الكفروى الذى شارك فى المهرجان ، فى ندوة حول (القصة القصيرة فى العالم العربى: أسئلة الكتابة والتجربة) وتوزيع أعمالهم الصادرة فى مصر أو فى أقطار عربية أخرى ،وهو مجهود لا يستهان به إذ أن حجم الإقبال على القراءة وشراء الكتب كبير فى المغرب ،وهناك إحساس عام بحب الكتب التى لم يخفت بريقها بسبب وسائل الإعلام الأخرى، أو السينما والفيديو ،كما هى الحال فى مصر.

يجسد مهرجان الرباط الدولى إذن طبيعة المغرب ، فهو نموذج مصغر لثقافات المغرب وتعدداتها وفنونها المختلفة ، لكنه لا يكتفى بذلك وحسب ، بل يسعى إلى طموح أكبر فى تجسيد التعددية والحوار والتلاقى باستضافته لدول أخرى كثيرة من الوطن العربى، وشتى بقاع العالم، مؤكدا أن مبدأ التعددية والدمج ينبغى الوفاء له بالانفتاح على تعدديات أخرى وطبائع مغايرة ، فهكذا يبرهن على كونه بوتقة تتجمع فيها الخبرات والتجارب والأوطان ولو كانت متعاكسة المواقع على الخريطة . ولا يقنع المهرجان بذلك بل يصر على نوع آخر من التعددية يتمثل فى عدم الاقتصار - المعتاد -على مجال فنى أو ثقافى واحد يكون هو محور فعاليات المهرجان ، وإنما فتح الأبواب لمشاركة كل الفنون والمجالات الابداعية ، لكى تتحاور معاً . وتتكامل وتخصب بعضها بعضا، فهناك الغناء (حيث شارك من مصر على الحجار مع بعض أعضاء فرقته الذين اندمجوا مع الفرقة المغربية ليقدموا حفلا ضخما بقصر التازى) ،والسينما (حيث كانت النجمة المصرية نبيلة عبيد ضيفة شرف المهرجان ، وعرضت فيلم «الآخر» قبل مؤتمر صحفى أقامته بمقر عرض الأفلام فى إطار المسابقة الدولية للفيلم التى امتدت أسبوعا للتنافس على جائزة الحسن الثانى ،من خلال أقسام روائية طويلة وقصيرة ، وتسجيلية ، كما تم تكريم السينما السورية بعرض خمسة أفلام إلى جانب قسم بانوراما السينما المغربية ،وقسم نظرة على السينما النسائية ، وقسم «سينمدرسة»

للأطفال والشباب ،وقسم الاعلام الذى ضم فيلما للمخرج المصرى سميح منسى، « لون البحر » ،وفيلما لشحات صديق «سيمفونية الغائب» ،والمسرح (الذى شاركت مصر فى عروضه بمسرحية «ذات الهمة» إخراج عباس أحمد ، وبطولة وفاء الحكيم وسامح الصريطى ، إنتاج مسرح الغد ، إلى جانب عروض من تونس والعراق وفلسطين والإمارات)، والفنون الشعبية ، والرياضة (مباريات فى كرة القدم والسلة والتايكوندو والكاراتيه والجودو والتجديف والسباحة والتزحلق على الماء وسباق القوارب)، والفنون التشكيلية والورش (معارض وحلقات عمل) ،والأدب (حيث تولى اتحاد كتاب المغرب تنظيم حفلات توقيع وندوات أدبية وقراءات شعرية : الثقافة العربية والتغيرات الاجتماعية ، الفكر المغربى الحديث والانشغالات الراهنة -وزمن الشعر أمز من الرواية ،المرأة والكتابة والمجتمع فى الوطن العربى).

زخر المهرجان بالحضور الجماهيرى الكبير ، لاسيما فى حفلات المطربة ماجدة الرومى ، وعائشة الوعد وشقيقها ،وعلى الحجار ، وأكثر منهم مارسيل خليفة الذى أثبت تواصلا واحتراما هائلا للجمهور جعل صفوف الشباب تنتظر طوال الليل حول قصر التازى لامتلاء القاعة . وكذلك حفلات الغناء التراثى ،وتكريم عبد النبى الجرارى، وقد شارك من مصر فى حفلات الموسيقى حسن شرارة وإيناس عبد الدايم وإيمان مصطفى ونبال منيب .وكان الحضور الجماهيرى خارج سياق الغناء منحصرا فى لقاء الشاعر الكبير محمود درويش الذى كرمه المهرجان ،حيث قرأ قصيدة «جدارية» وألقى بعض النقاد من البلاد العربية «أبحاثا» حول قصائده ، وقدم اللقاء حسن نجمى الشاعر ورئيس اتحاد كتاب المغرب . ولا شك أن مهرجانا بهذه الضخامة لا يمكن أن تضطلع به إلا الحكومة والمؤسسات الكبيرة ،حيث احتشدت مؤسسات مدنية الرباط وبلدياتها مع الوزارات والمراكز الفنية والبنوك والفنادق والخطوط الملكية المغربية والمعاهد الموسيقية والمسرحية والجمعيات الثقافية ، لتمويل وتنظيم المهرجان .والمدهش أن المهرجان يقام سنويا ، ويمتد لأسبوعين من ١٠ إلى ٢٤ يونيو ،كما أنه يمتد وينضج كل دورة ، ليس فقط من خلال الفعاليات الرسمية وإنما من خلال حوار المشاركين وتعرفهم بعضهم إلى بعض. والحق يقال ، إننى لأول مرة أجلس إلى مائدة



يجتمع عليها قرابة عشرين مثقفا ، يتحدث كل منهم بلهجة عربية مختلفة ، فكأنني وجدت نفسي في وسط جغرافيا مصغرة للوطن العربي وثقافته وآرائه المتضاربة المشاكسة والجميلة ، فهكذا أدركت موقعي أكثر، عندما أدركت موقع الآخر وتشابهاتنا ، وأصبحت الخريطة كائنا حيا، جماعيا ، متلوناً ، وأصبحت الثقافة ممارسة يومية تلقائية وتفاعلية.

***

بالرغم من أنني ما زلت لا أعرف على وجه التحديد كيف ذهبت إلى هناك أنا تحديداً ، إلا أنني التقيت بجزء من طفولتي في جبال المغرب داخل سيارة وحيدة تدور وتنحرف في مدارات أطلسية ، التقيت مرة أخرى بصوت الشيخ إمام في ذكراه وكلمات أحمد فؤاد نجم، فتذكرت حواديت كثيرة من طفولتي ومن حياة بلدي، كانت تكاد تمنحي لولا أن أيقظتها المغرب وأعادتني إلى هنا بقدر أكبر من الحنين ومن افتقاد معنى الوطن. ولعل هذه المفاجأة هي آخر ما كنت أتوقعه من رحلة لم أكن أتوقعها من الأساس ، مفاجأة أن تسترد قطعة منك في بلد كنت تعتقد إنها لا يشبهك في شئ.



الفن و« الآلهة الالكترونية»

أشرف ابراهيم

الفن المفاهيمى أو « المعلوم التصورى» أو« التصورية » أو « فن الفكرة Conceptual Art هو مصطلح فنى ينسخ الصورة الحسية التى نراها لإحداث صورة ذهنية فى الإدراك، ومن المعروف أنه بدأ التمهيد لهذا النوع الفنى فى أعمال الفنان الفرنسى مارسيل دوشامبDuchamp، لكن المصطلح استقر فى الستينات على أساس أن العمل الفنى ليس منتجاً فيزيقياً بقدر ما هو مجموعة من أفكار ، ولعل أهم فنان أشاع هذا المصطلح هو الفنان الأمريكى جوزيف كوستKosuthالذى عرض عمله الشهير «واحد وثلاثة كراس » عام ١٩٦٥.

هذا النوع من الأعمال يقوم فيه الفنان بترجمة فكرته باستخدام أى وسيط يراه مناسبا للتعبير عنها واختيار أى نوع من الخامات يخدم هذه الفكرة دون التقيد بالنوع الفنى التقليدى من تصوير أو حفر أو نحت ، ولقد تطور هذا الفن «فن الفكرة » خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين بشكل ملحوظ ومؤكد إلا أنه غالبا ما يعبر عن فكر ومفاهيم الفنان نفسه على أساس أن العمل الفنى ليس منتجاً جماليا بقدر ما هو منتج فكرى مترجم تشكيليا .ولقد كان لجماعة المحور التى تكونت فى الثمانينات من الفنانين أحمد نوار ، فرغلى عبد الحفيظ ،مصطفى الرزاز ،عبد الرحمن النشار ، السبق فى أول العروض التى تمت فى مصر من هذا النوع فى

الثمانينات بالتحديد عام ١٩٨٠. بقاعة السلام أى نفس مكان مجمع الجزيرة للفنون الآن كذلك، لا يجب أن ننسى اجتهادات الفنانة عفت ناجى والفنان منير كنعان فى الثورة على سطح اللوحة والاطار، الآن هناك مجموعة كبيرة من الفنانين الشبان الذين يمارسون هذا النوع الفنى منهم شادى النشوقاتى ،منى مرزوق ، وائل شوقى ، أمينة منصور ، عماد أبو زيد ، رحاب الصادق ، عادل ثروت ، أيمن السمرى وآخرون ،من هذا الجيل أيضا الفنان خالد حافظ والذى شهدت القاهرة مؤخرا واحدا من هذه العروض له بمركز الجزيرة للفنون تحت عنوان« منتصف الطريق إلى البيت والآلهة الالكترونية ».

تم رصد الفنان خالد حافظ على الساحة التشكيلية بمعرضه تحت عنوان « هلاوس مايو ١٩٨٧ ومنذ ذلك التاريخ تؤكد معارض الفنان طليعية ووعيه الفنى العميق.

فى معرضنا هذا يناقش الفنان على محاور متعددة مجموعة من الأفكار الشائكة والمختلطة والمعقدة أيضا فى آن واحد : حدود ما نعلم ، أسئلة بلا حدود تتكاثر وألف سنة أخرى تمر ١- الحقيقة واللاحقيقة ٢- المقدس واللامقدس ٣- ما نعلم وما لا نعلم على حد قوله فى النص المصاحب للعرض والذى يقسم فيه العرض إلى أربع حوائط.

حائط أول: آلهة الكترونية «كلنا قديس» المقدس والاستهلاكي وهو عبارة عن أربع مرايا فى أربع أطر على هيئة الايقونة المصرية القديمة وفى قاعدة كل منها لوحة مفاتيح من تلك النوعية التى تستخدم فى الكومبيوتر - مكتوب على يسار الداخل بيان صغير-بالخطوات:

- قف أمام المرآة- إضغط أيا من المفاتيح -انظر أمامك فى المرآة- مبروك قد أصبحت قديساً ..وفى الخلفية أربع دوائر ذهبية متدلية من السقف وكأنها هالات فمن يقف أمام المرآة يرى رأسه وقد توجت بهالة ذهبية.

حائط ثان: حجلة منتصف الطريق «خطوة المانيكان» المتحرك والثابت .وهو عبارة عن أربع مانيكانات بأطوال متفاوتة كالتى نراها فى نوافذ

محلات التزرزية ، مغطاة هنا بصور أبيض وأسود ملصقة على الجسد المصمت ، على أماكن الرؤوس التى فى العادة لا تكون موجودة .هناك هالات من نفس الهالات فى الحائط الأول والمانيكان مثبتة على قدم واحدة من المعدن وتتناثر على الأرض مجموعة من الهالات. الذهبية متراصة فوق بعضها بطريقة عشوائية.

حائط ثالث: منتصف الطريق إلى البيت «ابتلاع الاشياء» ماض يبتلع الحاضر نجد منقولات من مناضد وكراس وزجاجات وكتب ملصقة فى الحائط الابيض جميع هذه الأشياء قص الفنان منها جزءاً وكأن الحائط يبتلعها أو كأن هذه المنقولات تخرج من الحائط.

حائط رابع : اليوم أنا قديس (اللوحة) الفراغ والمضمون .عبارة عن حائط فارغ طويل فى جانبه الايسر لوحة صغيرة.

فى النص المصاحب للعرض يقول الفنان خالد حافظ : «تدور فكرة العرض حول فكرتى المقدس والاستهلاكى ويختص كل حائط بقضية صغرى من الفكرة .حائط أول المقدس والاستهلاكى (استدعاء الآلهة المفضل.. شراء لقب قديس للحظة).

حائط ثان: الحركة والسكون .حائط ثالث : ابتلاع بعد زمنى (الماضى) لبعد زمنى آخر(الحاضر) .حائط رابع : الفراغ والمضمون.

ولنناقش العرض فى ضوء كل هذا . بداية يتعامل الفنان مع الفراغ على اعتبار أنه أربع حوائط وهذا التقسيم وإن كان مكتوباً بصورة جيدة فى النص المصاحب للعرض فى اعتقادى إلا أن الفنان لم يستخدم أرض وسقف القاعة بشكل جيد مع أن لدى الإنسان بصفة عامة ارتباط قوى بين السماء والقدسية فى جميع الأديان حتى الأطفال يظنون أن الله يسكن السماء وعلى المستوى اللغوى العربى والتى تعبر عن طريقة ما فى التفكير المنطقى لدى هذه الشعوب نجد واضحا أن كل ألفاظ وأفعال السمو والرفعة والنزاهة ترتبط بالعلو والسماء وكل ألفاظ وأفعال الوضاعة من الدنو والارض ربما فى

هذا الاستخدام الافقى إشارة إلى بعد الناس عن الله وفقدانهم للإيمان بأسباب السماء والدعاء بالسجود وفى هذا بعد ميتافزيقى لتعامل الناس مع المقدس والاستهلاكى .فى الحائط الأول هناك أربع مرايا داخل أربع أطر على هيئة الأيقونة المصرية القديمة غير مدهونة على لون الخشب وفى قاعدة كل منها لوحة مفاتيح كالتى تستخدم فى الكمبيوتر مقابل كل واحدة من المرايا هناك هالة إما مائلة إلى الأمام لتبدو على شكل بيضاوى فوق الرأس أو مستقيمة لتبدو على شكل دائرة. فالناظر فى المرآة الأولى ويضغط على أى مفتاح من لوحة المفاتيح ستتكون لديه قناعة أن هناك تغيراً ما سيحدث وإنه عندما يرى الدائرة الذهبية تتوج رأسه سيصدق نفسه ويتحول إلى قديس ولكنه حين ينتقل إلى لوحة المفاتيح الثانية لن يجد المرآة ولاالهالة ولكنه سيظل قديساً لأنه فى الجو نفسه وما زال يمارس نفس الطقس وقد عمد الفنان إلى عدم تلوين الأطر المحيطة بالمرايا لتتلون بسهولة فى مخيلة المشاهد دون حواجز من أى نوع كذلك عمد الفنان إلى كسر توقع المتلقى ليطابق الواقع- فى اعتقادى- فكثيرا ما ننظر إلى أنفسنا فى المرآة صباحا ونحن نحلق الذقن أو نربط أربطة العنق ونعتقد إننا قديسين نتيجة لتراكمات وضغوط العمل والبيت والأولاد وما إلى ذلك يحلو لنا الاعتقاد بإننا قديسون وننزل من بيوتنا على هذا الاعتقاد ومنح بعض عابرى السبيل نقودنا دون دافع حقيقى إلا تحقيق هذه الفكرة ، ربما لنحافظ على هذه الصورة المرسومة فى أذهاننا عن أنفسنا وحسب، وكثيراً ما نتخذ فى حياتنا قرارات ليس لها تبرير سوى إننا قديسون . الفنان خالد حافظ يضع هذه الصورة الكامنة داخل أنفسنا أمام أعيننا . كذلك فى الحائط الثانى يتناول مسألة القداسة التى قد نخلعها على مجرد مانيكان فى فاترينة فى الطريق ، إن المسألة ليست فى قداستنا نحن أنفسنا لأنفسنا بل ما نلقيه على بعض الأشياء ألسنا نقول فى أحاديثنا العادية مثلا كوب الشاى صباحاً شئ مقدساً فى الحقيقة لا شئ مقدس بالفعل بل نحن الذين نقدس هذا ونحط هذا ونضع

حوله الهالات نزينه بها ونرجم ذلك.

ولعل الفنان يتساءل فى سخرية حين كتب على أحد المانيكانات كلمة معقم Aseptized إلا أنه معقم فهو مقدس وله هالة مع أن الهالات ملقاة بلا عدد وبإمكان أى واحد أن يشترى أى عدد من الهالات.

مسألة حائط الزمن ذلك الحائط الأبيض الذى تدخل أو تخرج منه المنقولات من كراس ومناضد وزجاجات وكتب اقتطع الفنان جزءاً منها للإيهام بفكرة الدخول والخروج هذه .وفى هذا يقول الفنان :"«ترمز الحوائط للماضى المستمر . يبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام لأبعاد غيرمعلومة لنا . تتصارع قوتان جاذبية الماضى والجاذبية المضادة للحاضر الذى يرفض انتهاء اللحظة والدخول فى كنف الماضى «الحوائط البيضاء» ويسمى الفنان هذا الحائط منتصف الطريق إلى البيت (ابتلاع الأشياء) أعتقد أن الفنان فى معالجة هذه القضيةالكبرى التى دارت حولها معارك كثيرة فى الفن والتاريخ وما زالت تدور كتبها بشكل جيد فى النص المصاحب للعرض ولكنه لم يقنعنى شخصياً .بهذه الفكرة - ولو أنها وجهات نظر- ولكن أعتقد أنه لكونها فكرة ضمن افكار العرض لم تحظ بالتركيز المطلوب وأنه كان من الممكن أن تكون فكرة عرض منفرد ، يصف الفنان الحوائط البيضاء بأنها ترمز إلى الماضى المستمر تبتلع الأشياء من الحاضر بانتظام . الجدران من عصر الكهوف وهى تسير الإنسان يحفر ويرسم فيها ويسجل تاريخه أيضا . أذكر ذات مرة وأناأتحدث مع الفنان عن طفولته يقول إنه كان يرسم بألوان الباستيل والطباشير على كل شئ الجدران فى الشوارع والابواب والترابيزات» والحيطان فى المنزل . ربما ارتبط ماضى الفنان بالحيطان البيضاء من هذه الناحية . ولكن أعتقد أن تنفيذ الفكرة هى فكرة حركة وانتقال من الماضى إلى الحاضر ومن الحاضر إلى الماضى من المقدس إلى الاستهلاكى وبالعكس أيضا لم يكن بشكل كاف . كذلك فكرة الحركة فى الحائط الثانى للمانيكانات من حيث تفاوت الطول لكل مانيكان إلا أن فكرة الحركة جاءت هادئة بل ساكنة تماما ولا أدرى كيف يمكنه أن يجعل هذه الفكرة أكثر

حركة ليعطى لفكرته القوة والسرعة المطلوبة للفكرة الجميلة التى اقتنصها من أن الحوائط تبتلع الاشياء .الحوائط هى التى ترمز للماضى ولماذا يمثل الحائط أيضا الذاكرة على مرحلتين مرحلة تسجيل الوقائع ومرحلة الاستدعاء على حد تعبير الفنان ، ربما لارتباط ذاكرة الفنان وهو طفل بالحوائط دخل فى هذا التصور واعتقد أنه تصور كامن فى الفنان فقديما أجداده استخدموا حوائط المعابد والمقابر والقصور لحفظ الذاكرة الجمعية كتبوا عليها تاريخهم وعاداتهم ونصوصهم المقدسة أيضا وهذه مسألة التسجيل أما مرحلة الاستدعاء ففى قراءة وفك رموز النصوص المكتوبة وأعتقد أن فكرة استخدام الحوائط فى حفظ الذاكرة فكرة قديمة قدم الحاضرات الكبرى فى التاريخ الانسانى ، لكن استخدام الفنان للحائط الابيض وإضافة هذا البعد الحيادى للحائط من خلال هذا اللون يضفى الجانب الشخصى على الحائط والذى يعد من صميم فكر الفن المفاهيمى الذى يعتمده الفنان فى تعبيره عن أفكاره نوّع الفنان من طرز الكراسى والمناضد والزجاجات التى يبتلعها الحائط لدلالة على استمرار الزمن وما كان كلاسيكيا أو حديثا سيبتلعه الزمن ويتحول إلى الجانب الآخر- الماضى -الذى استطاع الفنان أن يعطينا الإشارة إلى أن وراء هذا الجدار الأبيض يكمن الماضى وما نقف نحن على أرضيته هو الحاضر الذى يزج بنا رويداً رويداً إلى حافة الحائط الفاصل بين الماضى والحاضر لنغدوبأسرع ما نتصور ماضياً . استخدم الفنان مرادفات شخصية حميمة تتعلق بالإنسان نفسه فى أى مجتمع وأى ثقافة من قبيل أشياء كالمناضد والكراسى والزجاجات والكتب.

الحائط الأخير خاو إلا من لوحة صغيرة تتعدد عليها رموز الآلهة الالكترونية صاحبة الهالات الذهبية . فى الحقيقة إن اللوحة ليست صغيرة ولكن يمكن تصورها وهى تأخذ مسافة تكاد تقترب من ربع الجدار وربما ينبع ذلك من ضيق قاعدة العرض. كذلك فرض الفنان إيقاعه الخاص علينا من خلال بدء العرض من اليسار وليس من اليمين كالعادة فى شعوب الشرق العربى وفى هذا لفتة كبيرة إلى ضرورة النظر إلى مفهوم ومنظور وتصورات الفنان الخاصة المتعلقة بكل القضايا الكبرى التى يتناولها الفنان.

متابعات نقدية

ملامح شعرية الجسد
منذور لرمل

مصطفى عطيه جمعه

الشعرية كمصطلح ، يقصد بها : مجموعة الأنساق والقوانين التى تحكم العمل الأدبى وتجعله متميزاً . أى السعى إلى التعرف على الخصوصيات والمفردات التى تميز العمل الإبداعى ، عن طريق اكتشاف عناصر الجمال التى تحكم هذا العمل ، أو اكتشاف بعض تلك العناصر ، ودراسة علاقة هذا العنصر مع غيره من مفردات الرؤية والتشكيل فى العمل الشعرى . أما " الجسد " كمفهوم فيقصد به: طريقة التعبير التى يصوغها المبدع مستخدما فيها الجسد كأداة إبداعية وعنصر رؤيوى يشارك ويتعاضد مع سائر العناصر الأخرى فى تشكيل الإبداع .

ولدى الولوج الأول فى تلك التجربة الشعرية ، نرى ولعاً لدى المبدع بالجسد ، ليس على المستوى الحسى ، بل على الجسد كشكل يحوى الروح بداخله ، أى الذات المبدعة ، فنحن نتلمس رغبة حميمة أو بالأدق انكفاء جزئياً على هذا البناء العضوى الذى يشملنا داخله ، يحاول أن يتأمله ، تأمل الشاعر ، وتأمل المتسائل ، الذى يعمل على إشراك الجسد ضمن الخطاب

الشعرى ، وضمن حركة القصيد ، وضمن العلاقة التى يحاول أن يقيمها مع الواقع المعاش.

ومن خلال هذا التطور نستطيع أن نحدد مجموعة من المحاور الشعرية التى دار الجسد فى ثناياها ، مقيما علاقة جدلية وانعكاسية مع عناصرها.

الجسد / العنوان:

حيث يكون الجسد عنصراً فارقا منذ البدء ، وأعنى به العنوان ، فالجسد كلفظ ، هو مدخل لصوغ الرؤية ، جاثم ملح فى عناوين القصائد : من مثل " جسد يحتاج لتهذيب"، " علنى أخطو على جسدى" ، هذا على مستوى اللفظ بذاته حيث الجسد هم يسيطر على الحالة ، ويكون هدفاً للتهذيب أو الامحاء لصالح الروح . أما عناصر الجسد فنجد منها قصائد :" عارية .. سوف ترقص"، " امرأة تدخل "، هنا الجسد الأنثوى ، ضمن المنظومة الشعرية المعتادة التى تتعامل مع المرأة فى هيئات عدة ، الجسد أولها . أو نلمس العناوين التى تحوى الجسد الحركى ، مثل قصائد :" أومض كيما تحوم الفراشات "،" سأبكى .. ربما انفعلت بلادى "، " كما يمشى الغزاة " ، " أتهيأ كى تنحلى بى " فكأن الجسد الشاعر يتهيأ لتكوين علاقة جدلية أساسها الجسد ، فى علاقته بالأشياء والعالم ، على مستوى الجزء والكل ، وهذا يدل على الرؤية المتكاملة التى تغلف العالم الشعرى فى هذا الديوان ، والتى تعى وتسعى إلى محاولة فهم العضوية الجسدية ضمن القصيد ، أى استيعاب الجسد ليكون ضمن الحوار الجدلى الذى يجتهد فى تكوينه مع عالمه الداخلى ، وعالمه الخارجى.

الجسد / الرؤية :

" جسد عراه الوجد
وخشته الريح
فغطاه الوقت بأمكنة ..

هذا هو المدخل الأول لأولى قصائد الديوان ، يعلن عن التميز الجزئى الذى يحاول أن يطرحه الشاعر ، وقد آثر أن يكون هذا ضمن أول قصيدة ، التى حملت فى عنوانها دلالة توحى بالرغبة الحميمة فى السعى لاكتشاف كنه هذا الكائن المادى ، والتخلص من زوائده . وتصبح الروح وسيلة لتعرية الجسد" عراه الوجد" ، وتتحول " الريح" كعنصر خارجى من العالم ، إلى وسيلة ثانية

للتعرى . أى يتضافر الحسى باللاحسى ، والداخلى بالخارجى ، فى المحاولة الدؤوبة لطرح السؤال :

" جسد يحتاج لتهذيب زوائده
مازال يضج بالأسئلة
ويحن إلى شئ ما:
لاتبلغه الأعمار .."

هذا السؤال هو المحور الذى دارت حوله القصيدة ، وهو يحمل نوعاً من الطزاجة ، وإن كان السؤال ومحاولة التهذيب تخضع لأن يصبح فى النهاية :" جسد بللورى ، شفاف" ، فى رؤية نشم منها رائحة التصوف والرهبنة التى رأت الجسد مجرد حاوية للروح ، يشدها إلى ملذاته ، فأصبحت دعوة التهذيب ماهى إلا محاولة للتحلل من ربقة المادة ، كى تكون شفافية فقط ، لاتحوى إلا الروح . ويتأكد الأمر مع القصيدة التالية لهذه القصيدة ، حيث يقول :

" ياأيتها الروح ، انطلقى ،
حلى ، فى جسد شفاف
قد هيئ لى.."

بذلك تتكامل الرؤية للجسد ، ويصبح التهذيب مجرد شعار ، ومدخل للتخلص من سلطان المادة فى اتساق مع الرؤى التى تنظر بعلياء للجسد ، ضمن المفهوم الأثينى الذى فصل بينهما.

ويقول مخاطباً أميمة (كجسد) : هيا كلينى / علنى أخطو على جسدى / وأزعق ذى فنونى / علنى أنجو بروحى .." وتزداد الرؤية ليصبح الجسد مرادفا لكل ماهو مادى فى الحياة ، فيكون هو المدينة :" .. مدينة راودته ../ وغلقت أبوابها ، ورمته فى النيل المهجر .." وتضمحل حتى تصل إلى الجسد العضو ، حين كان فى أقصى الحديقة يمارس لذة جسدية ، على فتاة (جسد) ذات رتوش يتخيلها ، فتدخل فجأة المرأة/ الجسد ،و ..

" تمر قدامى ، ومن خلفى ،
وكنت فى أقصى الحديقة
غارقا فى التبغ ، محترقاً دمى "

استحالت التجربة إلى علاقة عنوانها الإعجاب الجسدى ، والحيرة فى التعسر للوصول إلى المرأة الجسد والغموض ، وظل السؤال غامضاً لديه ، وإن أوحت الأسطر بما فيه.

فالمرأة عادت - كالمعتاد - شبحاً وفتنة وسؤالاً، يطارد الذات الشاعرة ، فتضمحل رؤيته ، ويغرق فى سؤال أعاده إلى المادية المألوفة . ونفس الأمر فى قصيدة " امرأة تدخل" ، حيث يكون الجسد ممثلاً فى المرأة وهى تدخل فى صومعته (الشاعر المعتزل فى بناء عاج) ، ويكون التكرار بالشكل الهرمى هو مفتتح القصيدة ، فى تجربة تشى بالحرص على ابتداع بناء جمالى ، بحوار يتشابه مع الوحى المنزل ، فتكون المرأة مع ولوجنا فى الحوار هى شيطان الشاعر الذى يطل عليه ، ويبقى سؤالاً معلقاً فى فضاء النص . نفس الرؤية التى نراها فى عراك الشاعر مع الأنثى القصيدة:

" يامرأة لها طعم الفضيحة / فى غناء الحى/ يامرأة / تزوق لى خرائبها / لأهبط .."

وهكذا يكون الجسد ذا معزوفة متعددة الأوتار ، حاول أن يكون سؤالاً فلسفياً ، ولكن ظلت تيمات الشعراء التى تراوحه بين القصيدة والأنثى تطارده وبكثرة.

الجسد / الحركة والفعل الإيجابى:

تتحول مواجهات الشاعر للحياة ، ومحاولته التغييرية لما حوله ، إلى تعبير جسدى يفارق مااندرج عليه أصحاب الكلم ، وفى إشارة إلى أن عالمنا لم تعد الكلمة فيه وسيلة المثقف للتغيير ، بل انزلق مثل غيره ، بالجسد كفعل إيجابى تغييرى ، وإن كان لايتم إلا بالكلمات وعلى الورق فقط . يقول:

" سوف أفرك شمسى ببطء
وأشعل أعضاء جسمى
وأغمض حيناً..

.. ولسوف أدب على ركبتى ، فيحدث برق ورعد (فهل سوف تمطر ؟) .."

ويزداد الأمر ، لتصبح مفردات الجسد ، وسيلة أخرى للإفصاح .." ياأميمة ، حركى هذا الهواء / لعل(أسماء) التى راحت تغنى / أستطيع سماعها .."

فصارت حركة الهواء إيذانا بمحو كل ظلام وغشاوة ، فلجأ إلى الفعل

الجسدى ، فى يأس من فعل الكلمة . ويكون تأمل الجسد فى تعبيراته ، والشرطى يمرق باحثاً :" ياترى ، هل شم رائحة ارتعاشك ؟/ أم ترى لمح اصطكاك الركبتين؟"

فهل يسخر من تراسل الحواس ، وهو يتأمل اختباءه ، أم غرق فى هروبه فالتبس الأمر عليه ؟ ، فهل سيشم الشرطى ارتعاشة أطرافه ، أم يلمح فعل الاصطكاك الصوتى؟

ويصبح التعبير الجسدى هو البطل والفعل المسيطر ، وتتروى الصورة ويكون الموقف الحركى هو عنوان الإبداع ، وهذا ملحوظ فى الكثير من القصائد ..". فأمضى .. أدور مع الأرض / حتى أدوخ / وحين أجوع / سأرمى السلام / على شجر / ثم أمضى / إلى حائط آيل للغناء " صار التعبير بكل ماهو جسدى من اللف والجوع والكلام والمضى ، هو الطريقة المثلى لاقامة علاقة عضوية حية مع كل ماهو كائن حول الشاعر .

الجسد / التناص :

" مدينة راودته وغلقت أبوابها .." " غلقت أبوابها / ووضعتك فى التابوت / واستبكت عليك الطيبين " فالتناص مع قصة يوسف فى القرآن فى مشهد الفتنة ، حيث استعفف ، وفى إلقاء الجسد الطفل فى قصة موسى القرآنية ، حيث ظل الطفل فى التابوت وحيداً . إنه التناص الذى ينصهر فى بوتقه التجربة ، ليجعل الجسد عنوانا للعفة فى هذا العالم ، وموحيا بالغربة والوحشة للذات الشاعرة ، كأنها طفل في تابوت وسط الماء . وأيضاً فى قصيدة " امرأة تدخل " : التناص مع حادثة نزول الوحى ، حيث الغار والشاعر جسد قابع فى تأمل ، والوحى جسد أنثوى ملائكى ، يطرح أسئلة ، يعجز الشاعر عن إجابتها رغم أنها لاتزيد عن " اقرأ .. اقرأ .." ويكون الرد على الوحى الشعرى ، بفعل جسدى ، يتراوح بين الجوع والصوم والصمت.

سعادة متأخرة

للقبح أيضاً شعريته

محمد عبد الحميد دغيدى

الواقع أن قراءتنا لهذا الديوان الشعرى تقترب كما سيتضح الآن من قراءتنا لمجموعة قصصية ، وهذه فى رأيى طبيعة الحديث عما يطلق عليه(قصيدة النثر) فشعرية الحدث وليس شعرية القصيدة هى مايتكئ عليه الشاعر (فتحى عبد الله) فى ديوانه(سعادة متأخرة)..

ففى قصيدته (قهوة الصباح) مثلا رغم أن الحدث أو الأحداث هنا سلبية ومظلمة ، إلا أنها تعبر بحق عن الواقع الذى نعيشه ، الدرك الأسفل الذى هبطنا إليه ، من ناحية أخرى تتناغم تلك الأحداث معا محققة ايقاع الظلمة والهبوط : " الذين برروا له / أن يقتل أصدقاءه / أثناء لذتهم / ويضع أحشاءهم فى أكياس صغيرة / فهم فى حاجة إلى هذه السعادة / ولايصلون إلى ذروتها / إلا اذا لعبوا / بعظام مصارعين من الدرجة الأولى/ وهم يشربون قهوتهم فى افطار الصباح " كذلك فى قصيدة (ابريل أيها الطيب) يتناغم الشعور بطيبة هذا الشهر ، مع سببية هذا الشعور ، فهو يعطينا فرصة للهروب من الواقع من الآتى إلى الآخر الذى يستحيل وجوده رغم بساطته ، إنه يعطينا فرصة لاختلاق ماليس له أساس من الصحة ، باختصار يعطينا فرصة للكذب خاصة على أنفسنا حتى نستطيع مواصلة الحياة ، ومن هنا تنبع شعرية الحدث حتى لو كان كذبا :" ابريل أيها الطيب / بقرات أبى / فى حاجة إلى دواء / وأولادى مصابون بأمراض الكلاب / ولحيتى طويلة/ وأحبها هكذا / لأننى وحيد / وزفعالى كلها لى ".

وفى قصيدة (لابسوا الكاوبوى) يطرح الشاعر سؤاله : هل أصبحنا مثل (لابس الكاوبوى) ؟ فصار كل منا ملاكما ملتحيا محتفظا بمسدسه فى جيبه جاهزا للاطلاق فى كل وقت ؟ وبهذا التساؤل يتزن الأمر ، وتخفت حدة الاندهاش من ورود فعل القتل سبع مرات فى القصيدة ، وبذلك يتحقق

مايشبه التوافق أو التماثل فى الحدث .. مثلما تتناغم الأحداث معا فى قصيدة (قد تضحك زوجتى مما أفعل) لتشكل إيقاع الزمن الردئ ، فمن تولد الشك فى قلب اليقين " مؤكد / أننى بذراعين / ولاينقصنى ماأخاف عليه " إلى القسوة والتحجر والجمود " وعليهم كذلك أن يحرقوا جثتى / اذا لزم الأمر " إلى التناقض المرعب بين الرقة والعنف بين الجمال والقبح " ورجل بمفرده / يحمل البيانو / أصابعه كلها نحيلة / يترك الجثة فى هدوء " إلى القيود التى يضعها البعض على الآخرين حتى عند ممارسة أبسط حقوقهم " ولحيتى / التى تسبب كثيرا من الحرج" تتكامل فى الذهن صورة الآتى بكل نواقصه وعيوبه ، وتتوارد الى السمع معزوفاته المتوالية لتصنع معا لحنه الشاذ الغريب ..

والشاعر يتوقع منا كقراء أن نتساءل فى دهشة : هل للقبح إيقاعه مثلما للجمال إيقاعه ؟ فيجيبنا بوضوح من خلال احدى قصائده بعنوان (تحت حرارة منخفضة) فيقول: " ولاينقصه فى هذا / الا أن يصرخ / حتى يعثر على الإيقاع المناسب "..

× ويطرح لنا فى قصيدة (الاعلان عن البهجة) صورة لشعرية الحدث الأسود أو الحدث الآخر ، فتلك مشاهد عديدة للتناقض وحده : رجال الدين الذين يرتدون الملابس القصيرة رغم أنهم مثال الاحتشام والوقار " فشارك قسيسين / بملابس قصيرة " ومعنى البطولة الذى اقترن فى هذا الزمان بفعل الجريمة واقتراف الذنب " ولكى يصبح بطلا / عليه من الآن / أن يقتل أمه " وتلوث من كانوا يرمزون للأصالة والثبات ويشار إليهم عند الحديث عن الفضيلة والطهر " فلاحين أخذوا على أنفسهم / أن يمارسوا الجنس / فى احتفال عام ".. تلك المشاهد تعزف كلها على نغمة التردى والهبوط ..

والواقع أن القتل هو ذروة الإيقاع لتلك النغمات النشاز التى أصبحت سمة لهذا العصر ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتردد بشكل منتظم فى قصائد الديوان الحديث عن القتل والقتلة ومشاهد الجثث .. وهذا نموذج آخر لشعرية الحدث الآخر أو الوجه الآخر للحدث ، فاذا اعتبرنا الجمال وجهه الأول ، يكون القبح وجهه الثانى أو الآخر ، هنا " شعرية العنف " ، فالكل يعزف على وتر العنف فى قصيدة (سعادة متأخرة) والتى يحمل الديوان عنوانها :

المصارعون السود وجنازة الحفريات ووممثلة الاغراء وهى تقطع أصابعها بالبلطة الصغيرة والمتفرجون الذين يمارسون الجنس والزوجة التى تأكل لحم زوجها .. كل ذلك يشكل مع نداء الشاعر بأن نصدق وكالات الأنباء والتصريح الخفى بالنفاق والكذب السائدين فى هذا الواقع ، إيقاعا غريبا للقبح أو الوجه الآخر للحدث ..

ويتوالى تتابع وتواتر المتناقضات المدهشة التى يتسم بها هذا العالم فى قصيدة(أترك أبطالى حسب أدوارهم) ، فكيف تجتمع حرارة اليد مع وجود كثير من القتلى بها ؟ وكيف تقترن الأزهار وهى وسيلة التواصل والتعبير بالبرودة ؟ وكيف يصاحب التحريض على النظافة والنقاء تراكم العديد من الجثث؟ .. وليس من قبيل المصادفة اذن مادمنا نتحدث عن شعرية القبح ، أن يتردد ذكر اللوطيين فى الديوان كرمز لانتشار الإباحية والرذيلة ، وتكرار ذكرهم هنا يمثل دقات انذار لما يمكن أن نصيره ونؤول اليه ، بمعنى آخر يتحول هذا التكرار الى مايشبه الرنين الذى يطن فى آذاننا ، إنه جانب آخر من إيقاعية القبح ، معزوفة أخرى من معزوفاته .. ولكن يبقى السؤال : هل تكفى ايقاعية الحدث وحدها لتحقيق التأثير والتحول ومن ثم الاستمرار والبقاء والخلود ؟ وبمعنى آخر أكثر بساطة ووضوحا : هل تغنينا ايقاعية الحدث عن إيقاعية القصيدة ؟

« كوميديا الانسجام »

لوحات من الشجن والبراءة

شريف صالح

ربما يصدم القارئ حين يجد القصة تمر أمامه مر السحاب . سطران أو عدة أسطر .. فتبدو المجموعة القصصية « كوميديا الانسجام » الصادرة عن

دار مركز الحضارة لمحمد بركة مجرد مجموعة من الصور والعبارات الخلابة والوصف الطفولى للأنثى مما يدفع القارئ للتساؤل : أين الحبكة؟ ماالذى تقوله هذه القصة الخاطفة ؟

وليس هناك مفر من أن يبحث المتلقى عن مفاتيح أخرى للدخول إلى العالم القصصى لمحمد بركة.

المفتاح الأساسى لفك شفرة النص يمكن استلهامه من الاتجاه التأثيرى فى الفن التشكيلى والموسيقى والأدب . يؤرخ البعض لبداية هذا الاتجاه عندما رسم كلودمونيه كنيسة ويستمنستر المطلة على نهر التايمز عام ١٨٧٤م ، لقد بدت معالم الكنيسة غارقة فى الضباب ، وكأن الفنان لايصور الكنيسة ذاتها وإنما يصور انطباعة الشخصى عن الكنيسة.

وقد تطور الاتجاه التأثيرى على يد مانيه ورينوار وديجا وغيرهم وأصبح يهتم بالتأثير العابر لتداخلات الضوء واللون والحركة ، وإهمال الخطوط الخارجية المحددة والألوان القاطعة ، كذلك أصبح الاهتمام بالطبيعة على نفس درجة الاهتمام بالموضوعات الانسانية.

وفى الموسيقى أيضاً نجد أعمال ديبوسى تعنى باللغة الوصفية ، حيث يحلق بأبسط الوسائل وأقل التفاصيل ونلمس جو التصوير من عناوين مقطوعاته الموسيقية مثل « خطوات على الثلج» ،« سحب» ،« روض تحت المطر » : فى حين ظهرت الانطباعية فى الأدب فى بواكير أعمال بودلير ومالارميه ، وكانت تعنى الرؤية الذاتية فى مقابل الرؤية الموضوعية ، وكأن الكاتب يعبر عن انطباع ذاتى أو حالة مزاجية فى عمل فنى ما .

وإذا مااستعدنا ماقلناه آنفاً عن الاتجاه التأثيرى ، لوجدنا أن أهم تقنياته تتمثل فى : الإيحاء ، الوصفية ، التلقائية ، الشعرية ، الغموض ، استكناه الذات . وهذه السمات مجتمعة تشكل العالم القصصى - لنصوص كوميديا الانسجام - جمالياً . بمعنى أن كل نص هو لوحة وصفية أو " كادر" مرسوم بحس انطباعى ، يظهر هذا من العناوين مثل : « هكذا كالحلم» ،« ثلاث غيمات»، « شعر البنات » ،« المارد المرح» . ومن وراء العناوين تظهر قريته النائية - كفر سعد البلد - بشكل جمالى ينتمى قلباً وقالباً إلى التأثيرية . فى نص « هكذا كالحلم » يقول القاص فى ص ١٧ :« رأيت المطر يهدأ . كان ذلك

شبه مؤكد حين نظرت إلى سطح الترعة . ومن فوق السطوح ، غدت المزاريب أقل انفعالاً وأكثر رزانة .." ثم يضيف : انفرج تكتل السحب الداكنة قليلاً ، وأطلت السماء على الأرض بعشرات العيون الزرقاء . وتسللت أشعة الشمس مبللة وهى تمسح أوراق الكافور المغسولة بالمطر » أى ليس فى القرية فوضى أو قمامة أو طين أو حتى أطفال مصابون بالهزال يرتعشون من البرد ، بل إننا أمام قرية المطر والغموض والشاعرية التى تذكرنا بشاعرية السياب – لاأدرى لماذا السياب بالذات! – ثم يتكرر المطر فى لوحات بركة المستدعاة من منطقة وامضة ، يتصارع فيها التخيل والتذكر ، مثلما نجد في نص " معلهش" ونص" أحمد حبيبة يتذكر" .

هناك فى تلك اللوحات احتفاء بالطبيعة وبالانسان على السواء ، الجد العجوز يخرج تحت المطر ليعالج بفأسه الصغيرة آثار المطر ، وأحد الفلاحين – فى خلفية الصورة – يسير بعربته متوخياً السيول .. وإذا لم يجد فى الطبيعة مايعزز الإحساس بالجمال فانه يبحث عنه من خلال امرأة ريفية تغسل الأوانى على شاطئ الترعة ، فتوصف بأنها ذات جسد عفى ونهدين ممتلئين فى لون الحليب يرتجان خفيفاً ، وخضراء العينين أيضاً .. وبضربة فرشاة سريعة يكمل القاص صورتها بأن « زراير فتحة الصدر الثلاثة المقطوعة وكان يبقى أجمل لو كانت قد استغنت عن دبوس قليل الحيلة تشبكه كبديل فلا يستر شيئاً" ص ٢٠ .. لاأظن أن قطع الزراير الثلاثة كان بسبب فقر المرأة وإنما لأن القاص يريد تكوين انطباع أكثر إثارة يجعل القروية العفية التى تعمل بحماسة كاحدى فاتنات الأساطير.

هكذا تمتزج الشخوص والأشياء فى مساحة مشتركة بين الذاكرة والخيال وتتجاوز القرية حدود الواقع المعاش لتتجلى علينا مرة أخرى فى واقع مختلف نسجه القاص بطريقة لاتخلو من غموض أحياناً ، فتستدعى صورة القرية عند القاص صورة عتيقة لكنيسة ويستمنستر الغارقة فى ضباب لندن.

نصوص محمد بركة ليست صوراً ساكنة ، بل إنها متوترة توتر اللحظة ورهافتها ، تتكاثف الأزمنة : الماضى والحاضر والمستقبل ، فى لحظة حادة مشحونة تضفى على المكان اهتزازاً وحيوية . لذلك يبدو المكان شاهداً على

التحولات الدرامية ، وعلى غنائية المشاعر المتوارية ، فلا يوصف ببرود وحياد ظاهرى لكنه يوصف بحركة نتناغم مع حركة المشاعر وتحول الأحاسيس ، ومن نماذج هذا المكان دكان بائع التموين من خلال قصة « الأرشيف» ص ١٣ أو الغرفة الصغيرة ومفرداتها لحظة انقطاع التيار الكهربائى فى قصة « ينسانى الموت» ص ٣٣ .

بالطبع لايقتصر القاص على استدعاء أماكن ما فى لحظة توتر صافية ، هناك أيضا أشخاص ترسم لهم « بورتريهات » ملآى بالحزن والشجن ، فى تحول مكثفة مثلما نجد فى قصة « عشيقة الحاج معوض» وهى واحدة من أفضل قصص المجموعة ، اذ تطالعنا صورة فى غاية الحيوية والشجن للحاج معوض وهو يواجه لحظته الأخيرة (ص ٢٥)

أى أن الأشخاص والأماكن – داخل اللوحة – يستمدون ثراءهم من خلال كثافة اللحظة وتوترها الدرامى ، فى دفقات لغوية خاطفة تتوءم تماما مع الدفقة الشعورية . فذاكرة القاص لاتستدعى موقفاً بعينه كى تصفه ببرود وإنما تستعيد إحساساً مراوغاً (وهذا أصعب) .. هذه العودة إلى اليوم المصور الكامن فى الذاكرة يتم دون بناء درامى متماسك وتقليدى إنما يدخل الكاتب إليه بحيل بسيطة تظهر فى افتتاحياته المتعددة :

مثل « أذكر أنه كان يوم الاحتفال بمولد النبى ، أى يوم الحلاوة وذكر النبط » ص ٩ . ومن خلال توتر اللحظة يشركنا القاص فى استعادة ذاته بل ذواته أيضاً.

استعادة بريئة لذاكرة مثقوبة وحبلى باللحظات ، فاذا النص ينتهى بانتهاء الإحساس باللحظة ، وليس بالنهاية التقليدية المتعارف عليها وحين يتجدد إحساس آخر حول نفس اللحظة / اللقطة فهذا يعنى نصاً جديداً .. وهكذا .. لهذا كتب الراوى عن موت أخيه طارق نصين وكأنه فحسب يغير زاوية النظر الى ذات الكادر تبعاً للإحساس . وعندما يعلق على قصة لعبد الحكيم قاسم عنوانها « صاحبة المنزل» ينتهى إحساسه الانطباعى بالقصة حين يقول إن قاسم درويش طيب (ص ٦٦) .. وغير رائع يتجدد الإحساس بالموقف نفسه (وليس بقاسم كاتب القصة) فيعيد القاص رسمه من جديد وبحساسية جيله – لاجيل عبد الحكيم قاسم – وذلك فى قصته النديه (ص ٣٧)

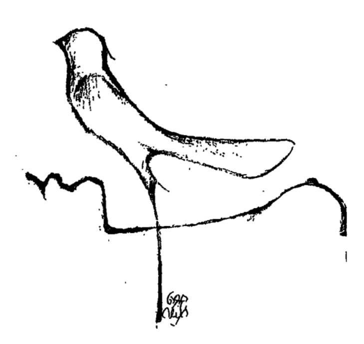
التى لو تفرسنا فى ملامحها قليلاً سنجد أنها صاحبة المنزل لكن بقلم محمد بركة.

قد تختزل اللحظة لتصبح مجرد إحساس لغوى باسم « مارى » فتفقد شيئاً من العمق الإنسانى بضغط من الافتعال اللغوى ، وقد تمتد اللحظة إلى مجموعة من الصور والخيالات المتتالية مثلما فى القصتين الأخيرتين حيث تبدوان كنشاز خارج على إيقاع المجموعة وبين هذا الإختزال والامتداد تتوالى النصوص فى إيقاع موسيقى محبب ، وتشى بعالم من الفسيفساء أو اللحظات المتماسكة فى ذاتها ، لايتعامل معها القاص كمحترف ولايطيل الكلام ليثبت أنه كاتب متمكن ، كما أنه لايدعى اهتماماً بقضايا كبرى - حتى إن وردت عرضاً - لأنه يكتب من وجهة نظر الهواية المحببة ، التى تمارس حقها فى الوجود دون أن تثقل على أحد.

لذلك لانبالغ إذا قلنا إن محمد بركة وصاف للحظة المنسربة عبر الذاكرة والزمن الغائم البعيد .. وصاف للقطة التى رآها قديماً بدهشة الطفولة الأولى ، التى لم تكن بريئة تماماً ..!!

لقد تواءمت تقنيات الاتجاه التأثيرى مع عيون الطفل الكامنة وراء المشاعر والصور المختلفة . فالبطل والراوى هو طفل يتكلم عن شخوصه المحببة والأليفة فى نطاق الأسرة مثل : الجد والأب والأم (التى تكررت كثيراً) والأخ المتوفى والجيران.

هذا الطفل يمارس ألعاب الطفولة مع الأصحاب ، ويقابل المطر بالغناء ويستخدم كثيراً كلمة« ولد » أو « عيل» بجانب شخصيات الكرتون الشهيرة مثل فيجا وأبى الغضب . وببراءة يلعب (الراوى / الطفل) بالصورة البلاغية جنباً إلى جنب مع الكلمات العامية الركيكة . فمثلاً الكلمة المأثورة عن سيدنا عمر رضى الله عنه « أرى الشاب فيعجبنى » تتحول إلى « أرى البنت فتعجبنى ومدرسة البنات يكنى عنها بمملكة الدانتيل الأبيض . هذا اللعب بمستويات لغوية متعددة يتوازى فى بساطة مع خلط الموروث الشعبى بالموروث الدينى ، لعبة اسمها الكتابة يمارسها طفل ، لن نملك إلا أن نصفه بالبراءة ، رغم أنه يمتلك عيوناً لاقطة وثاقبة ، ذات إحساس حى ويقظ يتدفق فى سهو.



« أذكر أنه يوم الاحتفال بمولد النبى ، أى يوم الحلاوة ودكر البط الشينى والبهجة الموسمية ..» هكذا يحدد الراوى تاريخ وفاة أخيه بدقة وبعفوية ، وعندما يرسم لنا مكان الحادث يقول فى منتهى السلاسة واصلاً الكلام : « والبهجة الموسمية التى تترقبها عزبة نائية ـ لم يكن بطل الحرب والسلام يعرف عنها شيئاً » أى أننا فى عزبة نائية يوم مولد النبى عليه السلام فى الثانى عشر من ربيع الأول ، فى نهاية السبعينيات حين أطلق على الرئيس السادات هذا اللقب . كل هذا يختزله الراوى فى سلاسة وصدق .. يكون النقد الاجتماعى أو التهكم السياسى كامناً وراء السطور لكن مايشغل القاص أكثر هو حضور (اللوحة / اللحظة).

إنه عالم طفولى قائم على المؤقت والدائم .. المرح والخوف .. البراءة وقليل من الخبث .. الجنس فى عفويته وبساطته .. عالم انفعالى إما أن يتورط المتلقى فى لحظاته وإما أن يقف على ضفة النهر الأخرى . وأبداً لن تكون هناك جدوى من التعاطف مع النصوص دون أن نلج إليها ونحن حفاة وأبرياء .. مجرد أطفال صغار يجوبون الشوارع والحارات فى يوم مطير ، يغنون نشيداً خالداً بكلمات مبهمة ، قبل أن ينكشف عنهم غطاء واقع مرير دأب دائماً أن ينهر فينا طفولتنا ، بنفس القوة التى دأب بها محمد بركة أن يستعيد معنا الطفولة بعيون طفل لاتموت ، ولاتقتل بداخلها الدهشة أبداً ..



ضراوة المبتسم

وليد طلعت، إيهاب خليفة، حنان جودة، ميرفت العزونى
محمد داود، محمد طلبة، عمرو النوسانى

تقديم:

فريد أبو سعدة

هذه أصوات جديدة . وإن لم يكن تماماً! بمعنى أن بعض هذه الأصوات قد نشر فى مطبوعات لكنها محاصرة ولا تصل إلى أحد!.

عرفت هذه الأصوات من خلال اللقاءات العديدة التى تنظمها قصور الثقافة والتى أتاحت لى، ولغيرى، القاء بهم، هؤلاء الممسوسين بالكتابة، الممتلئين ،حتى الحافة ، بالرغبة فى النظر إلى الجهة الأخرى من الألم! والتنزه فى حدائق الجنون.

أبدو لمأحة لأبعد ما يكون
وابتسامتى
التى تداعب وجهى
تكسبنى ضراوة عالية
فى مخالطة الآخرين

هكذا تواجه حنان جودة العالم ، بضراوة المبتسم، المسلح بما يكفى من اللماحّية!.

نعم ما الذى يمنع من رؤية مغايرة ،وهل من ضرورة لأن نأخذ شكل الحاقدين الكارهين إذا ما كنا نريد مواجهة العالم؟!.

ومع ذلك سأختار لها قصيدة أخرى!

فى «معركة» عمرو النوسانى يقول عجوز:

أقاتل فهداً منذ سبعين عاماً

فتقول امرأة، صبغت شعرها بذهب الحناء:

اقاتل ضبعاً منذ خمسين عاماً

وهكذا نكتشف أن كلا منا يقاتل عدواً لم يختره.

وبطريقة أخرى يقول وليد طلعت:

أحيانا

يصارحنى أحدهم

أنه- منذ زمن بعيد-

قد قتلنى مرّة!

يقول: لم أكن أقصد

ويبتسم كثيرا لعودتى السالمة

غير أننى لا أكاد أتوجس

حتى يفعلها!

أنها التنقلات المدهشة للاستعارات ، التنقلات التى تجعل الحياة والموت يتربصان بنا بأشكال غاية فى التنكروالتمويه، الاستعارات التى تؤكد أن الحقائق لا تزال قادرة على إثارة الدهشة.

يقول إيهاب خليفة:

ما زلنا نتذكر

تضرعات التورتة المساقة فى احتفال

الأمس

كانت جميلة

ثلاثة أدوار ، وشمعة واحدة

من أجلها حشرونا فى درج جانبى

وأخلو لها عدة أرفف

كانت تقول:

لم أكمل يوماً واحداً
لا تقطعوا أوصالى
دعونى أموت طبيعيا بالعفن والفطر!

أما ميرفت العزونى فتضعنا فى« الاختبار » الصعب ، تضعنا فى طقس غامض وسرّى لذات تراقب العالم بفرح والعالم لا يأبه بها ولا يشعر بوجودها ، ذات محاصرة لا تجد الطريق إلى التواصل الحميم مع الحياة ، لا تجد الباب الذى يمكنها من الخروج إلى العالم .هل هى استعارة أخرى للموت صانع الاستغارات.

قصدت تأخير الكلام عن محمد طلبه ومحمد داود ، أولاً لأن ما ننشره لهما هنا هو فقره من رواية كل منهما رواية محمد طلبة بعنوان «خط ثابت طويل».

ورواية محمد داود بعنوان « قف على قبرى شويا »!

السبب الثانى هو هذا المذاق الحريف الذى يميز كلاً منهما وإن بطريقة مختلفة وفى اتجاه مختلف أيضا ، والسبب الثالث ،فيما أعتقد ،هو أن كتابات الآخرين ، فى الشعر أو القصة ، تتشوف إلى التقطير وتميل إلى التجريد بينما ينحو كل منهما إلى الاغتراف من الواقع الحى ، اغتراف الثرى الذى يملك الكثير من تفاصيل المواجهة بين الموت والحياة ، اغتراف يجاور القسوة بالتسامح ويؤاخى بين الغناء وسلالم موسيقية مهجورة ولا تكاد تستريح من مخايلة الخبرة الإنسانية لك كلما أمعنت فى القراءة.

يقول طلبة «لماذا تكذب عليه؟! .لماذا . أنت تعرف تماما أنه سيموت إن لم يكن اليوم فغداً ، وإن لم يكن غداً فبعد عام أو اثنين . هالك لا محالة . لا تود أن تنطقها . تهرب من حروفها من وقعها على سمعك . لكنك تجابهه كل يوم عشرات المرات ، قل لى إذن يا طارق ماذا تحت جلدك الآن؟ ».

إنه الموت ،مرة أخرى ، يقبع تحت الجلد ، هكذا ، كخط ثابت طويل.

يقول محمد داود:« وماذا يحدث لو عصلجت ولم تكن الكبدة جاهزة قبل

عودته من المدرسة أو من الدرس أو قيامه من النوم .. الأكيد إضراب عن الذاكرة ،فتبدأ مفاوضات صلح يتلطف عبده ، الوسيط الوحيد دائماء بسياسة وسط العصا ، يسرد الحكم والمأثورات التى حفظها عن جد مات «البطن قبر تتساوى فيه الأطعمة » «البطنة ضد الفطنة» .بص بصه مسترضية لإفهامه أنه معه وإنما هو كلام ليرضيها . ويبص لها لتفهم أنه معها وانما هو كلام ليرضى الولد وإذ ينظران إليه معاً يرسم وجهه ويحور عينيه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد ».

منذ العنوان «قف على قبرى شويا » ومع التوغل فى السرد نحن أمام تجربة لغوية لافتة، وإن لم تكن جديدة بالطبع ، لتطويع العامية فى أداء لقطات من الحياة ، يتطلع إلى أن تكون بصرية إلى حدّ الفوتوغرافيا.

هذه الأصوات لن أتحرج من وصفها بالجديدة ، فهى جديدة بمعنى الابتداء وجديدة بمعنى الجدة فى آن.

وأنا أقدمها.هنا لنترك للقراء أن يختلفوا معى أو يتفقوا ،لكننى سعيد بوضعها فى الضوء الغامر «لأدب ونقد » مدركاً أنها كعروق الذهب تحتاج إلى الصقل والتشكيل والنخل والسبك، ومدركاً أيضا أن هذه أمور تقوم بها خبرة الكتابة والرغبة فى الإجادة.

سعيد لأننى أشير إلى هذه الأصوات آملا أن تقوم بما ينبغى لها، وأن يقوم النقاد بما ينبغى عليهم!!

وهذا حسبى أمام القراء.

مزيد من الوقت

إيهاب خليفة

-١-

الأصدقاء.
الذين يسمون الموت بأسماء غير حقيقية
رغبة فى التخفى
من أصابعه المشرعة..
أمهاتنا القديمات
اللائى سميننا صغاراً
بأسماء البنات..
إنه الحرص على استمرار التنفس
ما يشغلهم

-٢-

نستطيع النوم أخيرا
بعد محاولات يائسة
للتخلص منهم
العالقون فى جواربنا
مصرين على تحطيم سوقنا
قبل المغادرة

-٣-

سيكون دمار
بينا نغتسل من أدراننا
فى حجرات ضيقة لن يقطنها سوانا
الفناء الرخامى الواسع
الذى نملك وروده
سوف يمتلئ
الذين نحبهم سيأتون

متخلين عن رغباتهم فينا
سيكون شبع
ولن نظمأ أبدا.

-٤-

الماهرة
تستطيع إنجاب عديدين
لكنها لا تقاوم
فتلهم المدهش
ستصنع أبناء
يحملون انسيابية ذقنها
وأنفها المنمنم
بشعر راسخ
وأعضاء ذكورة ساخنة
ستصنعهم..
بمجرد
أن
يأتى..

-٥-

الولد فى الحجرة الداخلية
بكى
حين تحدث صديقه عن سمنته المفرطة
وبكى
حين رأى وجه حبيبته فى السماء
يتآكل
غمى عينيه
ورقص..

-٦-

المعجزة
لأنصاف أرباب صغار
يتعلمون المشي بلا اتكاء على الحوائط
ودون تلويث ملابسهم بالطين
بسرعة خارقة
ينفصلون عن الحركة
وتتحد ملامحهم
الخوف
إنه الرابط الهائل
أيها الأرباب الصغار

-٧-

ستودعك السماء أيتها الأخت
بدموع متطايرة
تغسل ثوبك المتمزق
- إنه ليس مطراً
هكذا قال الرجل الطيب
أنت شهيدة يا أخت
لم يكن مطراً أبداً
هكذا قال.

-٨-

أحياناً
يصارحني أحدهم
أنه- منذ زمن بعيد-
قد قتلني مرة
يقول
لم أكن أقصد

ويبتسم كثيرا لعودتى السالمة
غير أنني لا أكاد أتوجس
حتى يفعلها
-٩-
من لهؤلاء العفاريت الصغار
فتشوا حقائبى ، جيوبى
وأدخلو أياديهم الشقية فى قلبى
ليخرجوا صورهم القديمة
من لهم؟!
وأنا واقف على قدمين مازلت
لرعايتهم.

ودائما .. أرقص على جثتى
حنان جودة

الرقص على أطراف الحقائق
أكثر خبثا..
والإمساك بالزئبق مستحيل
هكذا .. أمى تقول
وبيدى اليسرى أسجل
«سرى للغاية»
لم أزل جالسة
نصب عينى سريرى
أتخيله..
لطيفا جدا معى
يمنحنى اشتعالا خرافيا
مع دخان سجائره المفرط

يورطنى أحيانا فى سذاجة مرغوبة
حي يحدثنى عن« تريزا »
-السلحفاة التى أحبها-
وكيف كان يعد ترنحاتها
وهو يرشف فنجان القهوة السادة
-مثل حياتى تماما-
ويسلم شفتيه لعزف منفرد
يتخيلنى حافة الفنجان
فيأكلنى لهفة
ناسيا إطعامها.
«تريزا الطيبة»
التى لم تقترف ذنبا واحدا
غير أننى أحضرتها
منذ عام واحدٍ
ومعها آخر.. ناضجا تماما مثلها
وطيبا أيضا
ومارست عليهما سلطاتى
بأن أرسلتها بصورة
مشرفة للغاية
لتسكن بيته
بعد أن لقنته أكذوبة أنها
أميبية المعيشة
تريزا الذكية الخباثة
أجبرتها على تعلم السرقة
والتلصص
فأصبحت متفردة فى نقل الأخبار
ممتعة حقا

حين تصفه وهو يبدل ملابسه
بعد أن تضع يدها على مواطن
الاختلاف والتميز فى جسده
فأراه على حالته وكأنى معه
أتسوله على أنغام.
Very Rhumantic-
أمتلئ امتلاء غير هين بالمرة
آه..
جعلتنى أحبه دون أن تدرى
منتقمة منى
ردا على ما فعلته بقرينها
الذى يكبرها ببلاطة واحدة.

**

«تريزا»
أصبحت أمى لا تثق بى
بعد أن أصابتنى تخمة
غير عادية
فأصبحت محشورة فى ملابسى
قصيرة جدا
رأسى بلا رقبة
بدانتى مرهقة جدا للنظر
سيحتاج الجميع لنظارات خاصة جدا
لإمكانية التعامل معى
ربما..
فى ليلة قادمة سأخبرها
-بصراحة-
أن السبب فى بدانتى
هو العناق المتكرر

**

لا أحد سيشعر بانقلابى

لأنى وحيدة حقا

كعادتى كل ليلة

أصفق الباب

صفقة غير لينة

أدير المسجل

أرقص احتفاء بمجيئه..

للغرفة البعيدة المخاصمة لغرف المنزل

-الوحيدة التى تتصالح معى-

فأشعر بسعادة استثنائية

أحاول ممارسة الرقص

ناسية أنى بدينة

أترنح كسلحفاة

أنقلب على ظهرى

أحاول ضبط التوازن

أتذكر قول أمي

لو انقلبت السلاحف على ظهرها

لفترة ما..... تموت

..

وأموت بجلدى

ولأن الغرفة بعيدة.. وحيدة

لا أحد سيشعر

بانقلابى

الاختبار

ميرفت العزونى

همت بالخروج لم تجد الباب ، هزت رأسها ، ضحكت فى داخلها . تنقلت بنظراتها فى أرجاء الغرفة، لا أثر له. جرت إلى الشرفة ، فتحتها ، رأت الشارع، المدرسة التى تلتصق بالبناية التى تسكن فيها، عادت إلى الداخل ، دقت بقوة بكلتا يديها على الجدران نادت على أمها ، أبيها، أخواتها ، لا أحد يجيب.

هرولت ثانية إلى الشرفة تستغيث بالجيران ، لوحت لجاره فى العمارة المواجهة لها، دخلت وأغلقت النافذة. أشارت لأخرى، تجاهلتها . فى حسرة قالت فى نفسها : لم يبق لى غير هؤلاء الأطفال ، نادت عليهم، رفعوا رؤوسهم الصغيرة ابتسموا للعصافير المحلقة فى الفضاء وانطلقوا داخل الفصول.

ظلت واقفة ، رأت رجلا قادما ، بعد تردد ، ألقت بأصيص الزرع ، سقط بجانبه ، تحرك بعيداً عنه وواصل السير.. أجهشت فى البكاء ، عجزت عن استيعاب الأمر، تحسست جسدها لتتأكد من وجودها، بحلقت فى الحجرة ، أقسمت أنها هى، نفس السرير ،الدولاب، الملابس لكن أين الباب..؟.

أين الباب..؟.

تأملت الساعة ، جزت على أسنانها ، الوقت يمر لديها مقابلة هامة من أجل وظيفتها الجديدة وعليها اجتياز الاختبار اليوم . فكرت فى حل آخر . خلعت كيس الوسادة ، علقته على شماعة ، خرجت رافعة رايتها، حركتها يمينا ويسارا لعل أحدا يجيرها ، سمعت صوت بائع الخضار. بلعت ريقها ، سألته : بكم الخضار ، لم يجب، وزن لجارة لها ثم حمل بضاعته وغادر المكان ، صرخت بعزم ما فيها ، ظلت تصرخ حتى أنهكها التعب ،جلست على أرض الشرفة ، نظرت إلى عصفور حط بجانبها ،سألته : أتعرف أنت أين الباب؟!! انتابتها حالة من الهذيان ، راحت تصفق بيديها وتضحك.

قف على قبرى شويا!

محمد داود

« كبدة » ماذا ، هى سمعت لكن تريد أن تلتقط أنفاسها ، وتستوعب ،« كبدة .. ماذا فى هذا؟ »> كظمت غيظها ، لو أن عبده هنا لاشتكت وهى تعرف رأيه ، « املئيه ..املئى بطنه .. سديه » ، سوف تشتكى ، لكن ليس قبل أن تسرع، لتعود بربع كيلو من النوع غير معروف البلاد ،وهو بجهل الفرق بين ما أحضرت، وما عند جزار ، دكانه مفتوح دائما قبالة مدخل الحارة الوحيد.

وماذا يحدث لو عصلجت ، ولم تكن الكبدة، جاهزة قبل عودته من المدرسة أو من الدرس ،أو قيامه من النوم؟!..

– ثمة ما لا يمكن توقعه، على سبيل المثال مزاجه ، وحرارة الجو ،وهل فى يده كوب أو أمامه طبق، لكن الأكيد إضراب عن المذاكرة ،فتبدأ مفاوضات صلح، يتلطف عبده ، الوسيط الوحيد دائما ، بسياسة وسط العصا ، يسرد الحكم والمأثورات التى حفظها عن جد مات ،وقريحة لقمانية ،« البطن قبر تتساوى فيه كل الأطعمة » ،« البطنة ضد الفطنة » ،يبص بصة مسترضية لإفهامه أنه معه ، وإنما هو كلام ليرضيها ، ويبص لها لتفهم أنه معها ، وإنما هو كلام ليرضى الولد، وإذ ينظران إليه جميعا ، يرسم وجهه ، ويحور عينه بحيث يأخذ كل واحد ما يريد.

–فى غيابه ،يأمن من زرابينه ، سيسب أيامه ، ويلعن شكله ، ودناوته، وبطنه التى تقوده ، وتهافته على رغائب نفس حمقاء ، وذلك فى رسالة مفتوحة لمن حضر منهم وبأعلى صوت ، طالما لم تأت من عند الباب إشارة تحذر من حضوره.

– فى بطن بهيمة الليل، مع نعيمة فقط، وبعد أن تعيد بالتفصيل كل ما كان يتعالى همسه المحتد لاعنا العيال ، وسنين العيال .. كبيرهم وصغيرهم..

–عندما يأتى آخر العام ، وستظهر النتيجة ،فيذكرهم بالواقعة ،ومثيلاتها ، سوف يكون مؤثرا للغاية وهو يقول بصوت تهدج بالبكاء :« منكم لله.. أنتم السبب ..منكم لله » ،حملهم أمام الله وزر نتيجة العام الماضى ، وانتقلت عدوى

البكاء منه إلى نجوى ،حاول عبده وحاولت نعيمة أن يتماسكا، وفشلت نعيمة ، بكت ، فبكى أمجد، وانصرف حسين، أما أحمد وجمال فلم يكونا موجودين ساعتها..

رائحة فضاحة اندلعت من ربع كيلو كبدة، فور أن لسعته نار طاسة ، رائحة مماثلة لتلك التى من عشرين كيلو، ولنجوى أنف صغير يشم كأى أنف آخر ، «ماما ..ماما» لعينيها تأثير يصهر أى قلب ،فما بالك بقلب أم ، دون هس بالصوت ، وضعت إصبعها على شفتيها ،«لا تقولى لأحد» أعطتها قطعة احتواها الفم الصغير واحدة ،لكزتها ..« بدون غموس يا مجرمة .. بدون غموس! ،خبرة أنف أمجد أكبر من نجوى سكت بمكعب فى حجم ربع علبة كبريت، وحمل أمانة لأحمد الذى هو فيما يعلمون هارب من ظلمة صالة مزدحمة إلى سطح مضئ، وفيما لا يعلمون ،جالس قرب ثقب فى جدار حظيرة أرانب مظلمة ، يمكن النظر منه إلى بيت جيران، بالضبط فى مكان خاص تخلع فيه الهدوم ،بعضها أو كلها «ماذا تريد؟!» خبيث هذا الولد أمجد، اضطراب وشخط تماما كما خطط .. لا تتسلل هكذا مرة أخرى ، ماهذا؟! ،فى يده٨ قطعة أكبر من ربع وأقل من نصف علبة كبريت ،كأنه غارق فى كتاب إدارة الأعمال «كلها أنت كلها أنت» ثقة فى محلها ، وأمل لم يخب ،هم يا جمل مرة واحدة ، بدون غموس ، تدحرجت نجوى مثل بلية على السلم ، لتفتن، ليس لأنه أكل الأمانة لكن بدون غموس.

حتى آخر نفس جاهدت نعيمة أنفاً بلا جفون ،وعصارات هضم لا إرادية خاصة تلك الكاوية فى المعدة، ونجح شيطان فى إقناعها ألا بأس من حتة فى حجم بنان أكلتها بثلاثة أرغفة ، رغم السكر،وأوامر طبيب مستوصف بربع رغيف، انكبست بالندم على الحتة، وثلاثة الأرغفة ، أخذتها غفوة ، وأعادتها يد ترجرجها ..«ماما.. ماما.. الكبدة يا ماما»، زلزال يقلب الأشياء ،قفزة واحدة فقط من الكنبة للطاسة ، قفزة سريعة تجاهلت آلام الظهر، والركبة ، شهقت، كفرملة سيارة كادت تفرمها وهى تسرع بربع الكيلو ، ليكون جاهزاً قبل عودته ، وها هو من عند الباب، استقبلته الرائحة التى بقيت حتى بعد فناء مصدرها ..«ماما .. الكبدة يا ماما..».

من أكل الكبدة؟ .. زعق باسم ، والله ما أذاكر إلا بالكبدة،، نزل أحمد من السطح ، وظهر حسين وجمال ، وبذلك السؤال الذى ليس له إجابة، بدأ شجار ، كلمة من هنا ،وكلمة من هنا ، أنت قليل الأدب ، أنت عديم الإحساس ، سمعهم عبده- الوسيط الوحيد -فاندفع يفصل بينهم، انتهز دفعة فى كتفه ، ووقع مدعيا الإغماء ، يقينا أنه فى صراع بين أن يظل فى الأرض ، لينصرفوا إليه تاركين العراك، وأن يسرع قبل أن يكون غياب جسده كحاجز مادى، سببا فى مزيد من الالتحام ، ويقينا أنه اختار مواصلة الادعاء، لكنهم لم يلتفتوا إليه ،فلم يجد بداً من القيام ، مزيحا نعيمة التى انكفأت عليه ، لتقف بوجه أحمر ، وعين متسعة، وفم فاغر تغلقة بيدها اليسرى، ويدها اليمنى لا تدرى أى وضع تتخذ ،نجوى تبكى فى ركن ، بينما كان إسماعيل ياسين واقفا فى طابور بملابس عسكرية ، والشاويش عطية يصرخ مغتاظا ، مخالى شل.. مخالى شل يا عسكرى .. يا عسكرى مخالى شل..»، وأمجد يوزع اهتمامه بين إسماعيل ياسين وبينهم.

خط ثابت طويل

محمد طلبه

الرحمة من عندك ، الريق يجرى فى فمى كأنه ضنبور مفتوح ، ميوعة ، غثيان ، أحتاج إلى فص ليمون، فص ليمون يا خلق .سأتقيأ يا دكتور .حقنة ضد القئ، بسرعة ،حقنة ضد القئ ، وأود فصا من ليمون، شبعت حقناً يا عالم دوار ، دوار ،أحشائى تطفو، لا أستطيع بصق ريقى، أبلعه ،يملأ فمى غيره، أبلعه ، إمبول يكسر ، ممرضة تسحب السائل إلى السرنجة، يخلعون السن، يضعون المحقن فى الكانيولا. الغثيان يزيد، سأتقيأ ، سأتقيأ قبل أن يندفع السائل إلى عروقى ، تدفق السائل ، أمعائى تعلو ، تعلو ، تندلق من جوفى فوق الفراش ، يلتصق بعضها فى حلقى ، أدلق جوفى ثانية .عاملة تأتى بجردل، غير مهم ، غير مهم ، أمرك يا دكتور ، صنعوا أمبولا آخر ضد القئ، المورفين السبب؟ ممكن يا طارق ، وممكن الجلطة ، استقرت أمعائى ،هدأت رغبتى فى القئ، طعم جوفى ما زال يلوث حلقى ، كوب ماء لأتمضمض ،هاتوا

كوب ماء . يديه فى جيبه ، ينظر فى عينى ،سأموت يا دكتور ،أعرف أنى سأموت أليس كذلك؟!.

-أزمة وتمر يا عم إسماعيل.

لماذا تكذب عليه ؟ لماذا ؟ أنت تعرف تماما أنه سيموت . إن لم يكن اليوم فغدا ، وإن لم يكن غدا فبعد عام أو اثنين .هالك لا محالة ، لا تود أن تنطقها ، تهرب من حروفها ،من وقعها على سمعك ، لكنك تجابهه كل يوم عشرات المرات . قل لى إذن يا طارق ، ماذا تحت جلدك الآن؟!.

- لماذا كنت ترفض دخول الطب؟،

تمددت الكلمات داخلى ، شاحت ، لا معنى لما سوف تقول يا طارق ،كيف تصوغ سنيناً وذكريات ومشاعر .آلاف الجمل والكلمات ، العالم متلاطم داخل رأسك، فماذا تقول؟ وكيف؟.

- أخاف الموت يا هشام .

لما سكتت عاصفة الضحك والهزل وكلمات التهكم .. أجال هشام بصره فى الحجرة الزجاجية . قرأت اللوحة المكتوبة فوق رأسه(الجمعية الأدبية ،،كلية الطب) خلع نظارته ،كعادته قبل أن يلقى بكلمة الفصل ،نظر إلى السقف، حاول اختراقه قال:

-واجهه يا طارق ، اجعله أمامك كل يوم حتى تعتاده ،هذه هى الطريقة الوحيدة لسلبه أى معنى.

الكرة الشراب الطافية تبتعد عن الشاطئ ، نمس جباهنا بأيدينا فيكسوها العرق اللزج ، ننظر إلى بعضنا البعض ، نصوب أعيننا تجاه الكرة الطافية وسط الترعة.

- فلينزل أحدكم لاحضارها.

- أنزل أنت.

العيون المترددة المنكسرة ترتد إلى أصحابها .الصبية الذين لم تنبت

شواربهم بعد تدق قلوبهم فى عنف . الكرة التى استقرت وسط الترعة تماما تشد أعينهم تماما إليها .الأيام الطويلة المهدرة فى تصنيع الكرة توخز صدورهم . المباراة المبتورة بلا نتيجة توسوس لهم بالقفز إلى الترعة لإكمالها . اللحظات الممزوجة بالعرق والصراخ ودق القلب تهددهم بالانفلات من بين أيديهم.

– هيا نعود إلى المنزل.

صرخت

– والمباراة؟!

–نكملها فى وقت آخر.

– يا جبان.

نظر إلى متحدياً.

–هاتها أنت شا شجاع

ملأ معدتى خواء هائل ،عرق بارد يزحف فوق ظهرى .. تلعثمت .

–سأنزل أنا يا طارق.

توقف سعيد .. هيا يا سعيد هيا ، لم يبق بينه وبين الكرة سوى ذراعين أو ثلاث .لماذا توقف الآن؟! شعره يقطر ماء على ظهره الملوث بطحالب سخامية اللون، لا تخف يا سعيد ،هيا . ضرب بذراعيه مرة أخرى ، ضربه ، اثنتين ، ابتعدت الكرة قليلا من أثر . ضرباته ، توقف ،حرك ذراعه بوهن ، غطس ،عافر برأسه ويديه حتى ظهر .ضرباته سريعة لكنه ثابت فى مكانه ،ارجع ياسعيد، غطس ثانية ، سطح الماء هادئ، هادئ ، لا أثر لسعيد.

–سعيد يغرق

انبثق من وسط الماء ، يدير وجهه يمنة ويسرة ، يبحث عن الهواء .

ضرب الماء بذراعيه ، أمسك بالكرة ، أدار وجهه ناحيتنا ، تشبث بها ، أخذ يغوص.. وعيناه ناظرتان إلىّ.

المعركة

عمرو النوسانى

تهتز الملاءة الحمراء فى يدى التى خدرها التعب.. أحاول أن أشرعها فى الهواء بالطريقة الصحيحة ..حتى لا يفتك بى برأسه الفولاذى وبقرونه التى تتوق لأحشائى..

تخوننى أعصابى وتنفلت الملاءة من يدى وتقع على الأرض .. ينتهز الفرصة ويشن هجومه بعنفوان لا تمسه شفقة.. يضرب الأرض بحوافره فتتفتت تحت قوتها يوجه رأسه وقرونه وجسده ويركض نحوى ..ولأننى أعرف أن الوقت لن يسعفنى كى أستعيد الملاءة. وأن أعصابى لن تعيننى على غرز السيف فى قلبه .. أركض بكل قوتى ..موقنا أنه لو طالنى فسوف يدهسنى بلا رحمة..

فى ساحة الحلبة أركض.. لم تترك قدماى أى شبر فيها إلا ووطأته ..وهو - خلفى -لايكل ولا يمل .. لا يتعب ولايهدأ .. والمتفرجون يتصايحون .. يشجعون الثور أن يدفن قرونه فى جسدى .. ويشجعوننى كى أقتله بسيفى.

لماذا هذا الثور بالتحديد الذى يصارعنى؟.

لماذا لا يكون ثورا أقل قوة وأكثر نحافة وربما أيضا دون قرون ؟ ..أستطيع أن أقتله بسرعة دون كل هذا العناء والتعب .. دون أن يكون الموت أقرب منى إليه..

فى اللحظة التى ولدت فيها ولد معى.. عريانين كنا .. نبكى معا ..ومن الظلمة إلى النور نزلنا معا..

وفى اللحظة التى رأينا فيها الدنيا أعطونى ملاءة حمراء وسيفا .. وأعطوه الوصية بأن يقاتلنى طوال العمر . وحينما انتهوا من تلاوتها ركض ورائى ..كانت أقدامه -وقتها- تتعثر فى ضعفه- وكنت أحبو أمامه وأصرخ ..ماسكا ملاءة حمراء وسيفا لا أدرى كيف يعيناننى على مهاجمته .. بينما قرونه تنمو أمامه كل يوم وتزداد طولا وشراسة.

كان يطاردنى طوال اليوم..وكنت مضطرا أحمى نفسى بمحاولة قتله.. أحاوره بالملاءة ويحاول تمزيقى بقرونه.. أركض حتى يكاد نبض قلبى أن يخمد .. ويركض خلفى دونما تعب .. ربما لا يتوقف إلا عندما يشعر بالجوع

..فيتركنى إلى صندوق طعامه فى ركن الحلبة .. يظل يأكل ويشرب لساعات عدة .. تاركا لى مساحة من الوقت لالتقاط الأنفاس وتناول الطعام ..وعندما يشبع يشد عضلات جسمه ويستعرض ضراواته.. يشير لى بقرونه فلا أملك إلا أن أمسك ملاءتى وسيفى وأشهرهما..

حاولت كثيرا أن أوقف هذه المعركة المستمرة منذ ثلاثين عاما .. أشرت إليه بأن نكون صديقين ..نعيش فى الحلبة ما تبقى لنا فى سلام .. لكنه نطحنى فى جانبى وكاد أن يطحننى لولا براعتى- بالممارسة- فى التخلص منه.. أشرت إلى المتفرجين بأننى زهقت من المعركة .. وأننى أريد أن أرتاح ما تبقى لى.. لم يصغوا إلى كلامى- توسلت إليهم أن يبدلوا هذا الثور بثور أقل قوة .. أستطيع أن أقتله وأرتاح .. لكنهم ربتوا على كتفى ..وجففوا عرقى..

قال عجوز..

-أقاتل فهدا منذ سبعين عاما

قالت امرأة صبغت شعرها بذهبية الحناء..

-أقاتل ضبعا منذ خمسين عاما.

قال شاب ذو قوة ورعونة..

- أقاتل أسدا منذ ولدت.

قال الآخرون..

- كل منا يقاتل دون أن يختار عدوه..

صوت أناوره بأعضاء ما عادت تقوى على حمل الملاءة والسيف ..

وصار يضرب الأرض بحوافره فيئن من الألم.

زحف الشيب فى شعرى حتى تلاشى..

وزحف العمر فى جسده حتى نحف وهزلت حركاته..

سقطت الملاءة والسيف من رعشة يدى..

وسقط بوهن جسده فوق سيقان تنوء بحمله ..

نظرت نحوه متوجسا .. ونظر لى بشفقة .. لم أرها قبلاً..

اقتربنا معاً ..وعندما تواجهنا .. تبادلنا التهنئة لانتهاء المعركة.

شعر

بيجرب المشى على رجل واحدة

مسعود شومان

(١) وهو بيعيط بحب

فيه حد يقدر يمشى زىّ
كده لوحده
وهو بيعيط بحب
وبيملس برقه على الشعر الأبيض
فيه حد يقدر يرقص زىّ
كده لوحده
وهو سايب ايديه تسوقه للضلمة
زى طير خفيف
بيجرب بناية عش
« ريش فى ريش فى ريش
ومشاغله وتوشويش
وصوصوه » *
هنا لوحدى
معايا قلب صغير

على قد تنهيدى
يدوبك يشيل دموعى
فيه حد يقدر يتكلم عن نفسه زىّ
عن حمولة الأحلام
اللى فاضت على الصندوق
أيوه
هو دا المجرى اللى رسيت فيه المراكب
وهى دى الحيطان اللى خربشها الرقص
سايب نقر مجروحه
وكلام حكيم
يقدر يقوله عن نفسه
وهو بيعيط بحب
وبيرقص
وبيجرب
يجرب إيه
ممكن المشى على رجل واحدة
أو النوم على رصيف فى محطة قطر
أو المشى فى شارع طويل
ومحصراه الشبورة
ومش باين غير شفايفه العريضة
مين يقدر زىّ
كده لوحدى
يمشى
يغنى
ويسيب قلبه للطير الخفيف
الطير اللى زىّ

اللى رفرف حواليا
وأنا فرحان بلمسة طراطيف جناحه
وبعيط بحب

١١-٢١ فبراير ٢٠٠٠

(٢) وهو ماشى فى حاله

ماكانش بيعيط بحرقه
دا كان بيجرب عنيه
دا كان نفسه يشوف دموعه
وهى بتغسل خده من تراب الشارع
ماكانش واخد باله
إن الحفر هاتجيب رجليه
وهو بيشاور لطير غريب
وبيقلد رفرفة الجناحين
وبيلوح كتفه
عشان يفادى الشجرة
ماكانش يعرف
وهو ماشى فى حاله
وهو بيدور على حاجة يقدر يلمسها
وتعرق فى حضنه
أو يقرر يسميها .. فينسى
إنه هايتورط فى الدنيا
المشى ببطء ناحية شط فاضى = المحبة
المحبة !!

حكاية غامضة
مش قادر يفهم راسها من ديلها
الطموح
الخلود
مين ينجده
وهو ماشى فى حاله
بيظبط مشيته مع دقة قلبه
وهما بيقولوا لبعضهم
لازم نكهربه
بعد مالحقوه العيال
وجرجروه على وشه
ماكانش صعبان عليه الدم
اللى نازل من راسه
دا كان نفسه يتأكد
إن قلبه لسه قادر على الفوران
ماكانش ماشى
ولاكانش مع حد
دا كان بيراقب غيمة
قربت تلمس خده
وهو بيحاول يطير.

١٤ فبراير ٢٠٠٠

(٢) وهو بيزك تحت المطره

عن إيه

عن رجل بتزك تحت المطره
وبتعدى النقر
وبتهش البط بعيد عن باجور الحرت
وفى إيه
فى ليلة باردة من أمشير
قدام منقد
وغيمة واقفة
وخيال بيتحرك ببطء ع الحيطة
على إيه
على ورقة
طيرها الهوا ناحيتى
من إيه
بالذمة
دا سؤال!
إزاى
زى ماانت شايف
قدام منقد باادفى
وعلى ورقة
زى أى حد
بجرب أكتب عنه قصيده
وهو ماشى يزك تحت المطره.

---

* من شعر صلاح جاهين

شعر

الطـــــريـــق

جمال راغب الدربالى

بحران يلتقيان لو أبكى معكْ
بحران يلتقيان لو أمشى إليكْ
بحران يلتقيان
وجهك .. لحيتك
بحران لو أفتح
جميع الأوردة
وأبوس عرقاً من يديك
بحران .. بل أبكى معك
بحران لاأبكى عليكْ
هاتِ إذن ماشئتِ ياأنثى .. دمى
كأساً .. حليباً رائباً
مراً ..
مزيجاً من هطول ومن لظىً
هاتِ إذنْ
وطناً يموتُ

وساقيةْ

تمشى على سودِ الموائدِ مثلما

يمشى التوسلُ

فى أنوفٍ لم تذق يوماً إباءْ

قصفٌ وياءْ

قصفٌ وياءْ

أسلمتُ روحى ياصديقةُ فى دمى

والدمُّ يُسْلِمُ

ياصديقةُ - دون كبرٍ -

مايشاءُ

ومن يشاءْ

....

....

بحران ..

تغرينى صلاتُكَ ياعُمرْ

بحرانِ يدفعنى

وضوءكَ للصلاةْ

....

الخيل موعدها المعارك ياعُمرْ

والخيلُ لاتمشى على الأسفلتِ

بل تمشى على سودِ

السحائبِ والبروقْ

الخيل موعدها غدٌ

والخيل موعدها الشروقْ

مَنْ قالَ إنَّ الخيلَ تمشى للسلامْ

كذبَ الوشاةُ
.. وسيَّسوا

....

ياأيها الشيخُ الصديقْ
قدمٌ على قدمٍ
.. طريقْ
والخيلُ أصبحَ عندها
مرضُ التأنثِ
أصبحت تخشى الخروجَ بغير « روج »
تغوى وتدركُ خدرَها
وتموتُ عند فراشها
وتغيبُ ..
من أوجٍ لأوجْ

....

ضحكت علينا الأغنياتُ
فخلِّنا
من غير لحنٍ ياعُمَرْ
ودعِ الثقافة والهباءَ
وسر بنا
متلحفينِ بجهلنا
وجمالنا
متوضئين بضوءِ سيفٍ
كان - قبلاً -
ينتصرْ
متوشحين ببعضِ ماباءت بهِ

كُلُّ القبائلِ
من خنوعٍ
ومن ظَفَرْ
....
كل الثقافة ياعُمَرْ
أن تمنحَ الرأسَ الجميلَ
لعوسجةْ
مرتْ عليكَ
ولم تمرْ
دخلت عروقكَ مثلَ طيرٍ رائعٍ
ومشتْ إليكَ بغيرِ جندٍ
إنما
" سالومى" ..
أعطتكَ الفراشَ فلم تسلْ
وعزفتَ عن حُبِّ الفراشِ
وكنتَ لكْ
ياأيها الشيخُ المَلَكْ
....
مرتْ هنا" إيزيسُ"
هل تهوى تمرْ؟
مرتْ هنا « بلقيسُ»
هل تهوى تمر؟
مرتْ جيوشُ المغلقين
.. وكسروا
نبتَ الحياةِ وأحرقوه

كأى طقس
من طقوس غرامهمْ
« قمبيزُ » يمشى كلَّ ليلٍ
للفراشِ
بمشعلٍ
من شمعِ أعصابِ القبائلِ
والطيوبْ
ويهمُّ للذبح الخرافىِّ الكبيرْ
....
ياأيها الشيخُ الذى
ملأ الصحارى عزتينِ ، وعزةً
ودماً يفورُ
وأغنياتْ
عَلِّمْ خيولكَ
أنَّ بعضَ الشعرِ ماتْ



رقم الايداع ٩٢/٧٥١٢ الثمن : جنيهان الأمل للطباعة والنشر